النداءات الإلهية في سورة التحريم

(دراسة تحليلية موضوعية)

د. خالد سعيد أحمد البسيوني(*)

إنّ الحمدَ لله أحمده وأستعينه وأستغفره .. والصلاةُ والسلام على خيرِ المرسلين ، وسيِّد المتقين ، وإمامِ العابدين ، وشفيعِ الخلْق يوم الدين محمدٍ ـ ﷺ ـ الرسول المصطفى ، والنبي المجتبى ، وخير الورى ، وأفضل من ناداه مَنْ على العرش استوى .

وبعد ،

فإنَّ النِّداءَ في كتابِ اللهِ ـ تعالى ـ صورةٌ من صورِ بلاغته ، ووجهٌ من أوجه بيانه ، وطريقةٌ من طرق وعظه وإرشاده ، ووسيلةٌ من وسائل تشريعاته ومنهجٌ من مناهج أوامره ونواهيه ، ونذارته وبشارته ، ووعده ووعيده ... الخ

وفي هذه الدراسة أحاول – بعون الله وتوفيقه – إلقاءَ الضوء على المعاني التفسيرية للنداء من خلال سورة التحريم وتشتمل هذه الدراسة على **المطالب التالية :**

المطلب الأول: تعريف النداء وأدواته، مع بيان ما جاء في القرآن الكريم من هذه الأدوات .

المطلب الثاني : أنواع النداء في القرآن الكريم ومغزاه .

(*) قسم التفسير – كلية أصول الدين – جامعة الأزهر – القاهرة .

المطلب الثالث : إلقاء الضوء على سورة التحريم من حيث تسميتها بهذا الاسم وسر ذلك ومكان نزولها وموضوعها بوجه عام ومناسبتها لما قبلها .

المطلب الرابع : استعراض النداءات الإلهية في سورة التحريم .

واللهَ أسألُ التوفيقَ والسداد

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم

- المطلب الأول : تعريف النداء وأدواته مع بيان ما جاء في القرآن الكريم من هذه الأدوات:

النداء لغة : الدعاءُ بأيّ لفظ .

واصطلاحاً : طلبُ الإقبال بحرف نائب مناب " أدعو "لفظاً أو تقديراً[١].

والمراد بالإقبال : مطلق الإجابة فدخل (يا الله) ولا تناقض في (يا زيد لا تقبل) لأنَّ " يا " لطلب إقباله ليسمع النهي ، فلم يتوجه له النهي إلا بعد إقباله، ولا ينادى في الحقيقة إلا المميز؛ لأنَّه الذي تتأتى إجابته، وأما غيره كـ (يا جبال) و (يا أرض) فاستعارة مكنية حيث شبه المنادى بالمميز في النفس ، و" يا " تخييل .[٢]

ولك أن تقول : من الجائز أنَّ اللهَ لمَّا ذكرَ حال الخطابَ تمييزاً فلم يقع النداء إلا لمميز .[٣]

أمَّا أدوات النِّداء فهي كما ذكرها ابنُ مالك في ألفيته :

وللمنادى النّاءِ أو كالنَّاءِ " يا " و " أيْ " و " آ " كذا " أيا " ثم " هيا "

والهمز للداني وَ " وا " لمن ندب أوْ " يا " وغَيْرُ " وا " لدى اللبس اجتنب [٤]

---

(١) [المطول ص ٤٣٠ للعلامة التفتازاني / ط / دار الكتب العلمية / بيروت . وحاشية الصبان على الأشموني ٣ – ١٩٧ مكتبة الصفا / الأولى ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م].

(٢) [حاشية الخضري على ابن عقيل ج ٢ – ٧١ / ط / الحلبي].

(٣) [حاشية الصبان ٣ ـ ١٩٧].

(٤) [يقول ابن عقيل في شرح هذين البيتين من الألفية :" المعنى : لا يخلو المنادَى من أن يكون مندوباً أو غير مندوب ، فإن كان غير مندوب فإما أن يكون بعيداً أو في حكم البعيد – كالنائم والسّاهي – أو قريباً ، فإن كان بعيداً ، أو في حكمه ، فله من حروف النداء : (يا) و (أي) و (آ)، و (هيا)، وإن كان قريباً فله الهمزة ؛ نحو : أزيد أقبل ، وإن كان مندوبًا ، وهو المتفجع عليه أو المتفجع منه ، فله – وا – نحو : وازيداه " و " واظهراه " و " يا " أيضاً عند عدم التباسه بغير المندوب فإن التبس تعينت " وا " وامتنعت " يا " هـ.[شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ص ٢٥٦ ط / الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م].

تلك هي أدوات النداء يتفاوت استخدامها حسب بُعْد أو قرب المنادَى من المنادِي، لكن ما له التميز من هذه الحروف هو " يا " فهي الأفشى في العربية، والأكثر في استعمال أهلها الخالص عند النِّداء، ولا يُقدّر عند الحذف غيرها ، وتتعين في نداء لفظ الجلالة ؛ لبعد مكانته مع قربه الشديد منا ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ [1]﴾

وتتعين أيضاً في باب " الاستغاثة " نحو : يا لله ، كما تتعين في نداء أيها وأيتها "[2]

ـ ولم يأت في التنزيلِ المجيدِ النداءُ إلا بها، ودعوى أنَّ الهمزة في قوله ـ تعالى ـ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ..[3]﴾ الآية على قراءة من خفَّفَ الميم[4] هي حرف نداء [5].

---

(١) [سورة ق آية رقم : ١٦].

(٢) [ينظر : حاشية الخضري على ابن عقيل ج ٢ – ٧١ ، ومغني اللبيب ٢ ـ ٣٧٣ لـ/ ابن هشام / ط – المكتبة العصرية / بيروت ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م].

(٣) [سورة الزمر آية رقم : ٩].

(٤) [قرأ نافع وابن كثير وحمزة : (أَمَنْ) خفيفة الميم . وقرأ الباقون بالتشديد ، وهما سبعيتان متواترتان] [حجة القراءات لـ/ عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة " أبو زرعة " ص ٦٢٠ – ط – مؤسسة الرسالة / بيروت / الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م].

(٥) [حمل الهمزة في هذه القراءة على أنها حرف نداء هو قول الفراء حيث يقول :" من قرأ مخففاً فمعناه : يا من هو قانت . والعرب تدعوا بألف كما تدعو بياء ، فيقولون : يا زيدُ أقبل ، أزيدُ أقبل "هـ.

ويذكر ابن هشام في المغني أنَّ قول الفرَّاء يقربه أمران : **أحدهما** : سلامته من دعوى المجاز ؛ إذ لا يكون الاستفهام منه – تعالى ـ على حقيقته . **ثانيهما** : سلامته من دعوى كثرة الحذف ، لكن يبعد هذا القول ـ كما ذكر ابن هشام أيضاً ـ أنه ليس في التنزيل نداء بغير " يا "[ينظر: معاني القراءات٤٢٠ لـ/ أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري – ط – دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م ، ومغني اللبيب ١ ـ ١٣].

دعوى غير صحيحة .. إذِ الهمزة في الآية هي همزة الاستفهام المحذوفة المعادل . والتقدير : أمَنْ هو قانت " خير " أم هذا الكافر ، أي المخاطب بقوله ــ تعالى ــ:﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ..﴾ الآية[1] فحذف شيئان:معادل الهمزة والخبر [2]

وكثيراً ما تحذف " يا " من نداءات القرآن، ولا سيَّما في الدعاء؛ كقوله ــ تعالى ــ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموْتَى ﴾ الآية[3] أي : يا ربِّ أرني .

وإذا حذفت " يا " من النِّداء في القرآن فلا يقدِّر المعربون عندئذ غيرها، أمّا السرّ في حذفها حينئذٍ فيظهر في **أمرين : أولهما** : أنَّ النِّداء يتشرب معنى الأمر؛ لأنك إذا قلت : يا زيد ، فمعناه : أدعوك يا زيد،فحذفت (يا)من نداء الرب ليزول معنى الأمر ، ويتمحض للتعظيم والإجلال .[4]

ثانيهما : أنَّ المنادِي – ولا سيَّما إذا كان داعياً ربَّه ــ تعالى ــ يسارع إلى الاشتغال بذكر المنادَى ، بحيث لا يشغله عن هذا الذكر شئ ، حتَّى لو كان هذا الشيء يسيراً كحرف النداء .[5]

---

(١) [سورة الزمر آية رقم : ٨].

(٢) [ينظر : مغني اللبيب ١ ــ ١٣].

(٣) [سورة البقرة آية رقم : ٢٦٠].

(٤) [البرهان في علوم القرآن ٣ – ٢١٣ للإمام الزركشي . ط/ الحلبي . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم].

(٥) [التفسير التحليلي لسورة النساء ص ١٠٧ الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة – مطبعة الفجر الجديد – الأولى ١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٣ م] بتصرف .

ومن الجدير بالذكر هنا أنه على كثرة ما نودي " الرب " ـــ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم لم يعثر عليه مسبوقاً بحرف النداء إلا في موضعين:

أولهما : قوله ـ تعالى ـ:﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ [1]﴾

ثانيهما : قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً [2]﴾

ولعلَّ مجيء حرف النداء في الأول ليعبر عن حالة نفسية ألمَّت بالرسول – ﷺ – ، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم ، فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم ، فأطبق الهمُّ على فؤاده – ﷺ – ، فأتى بحرف النداء ، كأنَّما يريد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله ، واستجلاب عونه ورضاه .. "[3]

والحكمة في الموضع الثاني ظاهرة ففيها شكاية الرسول ـ ﷺ ـ قومه إلى ربِّ العالمين حيث قابلوا القرآن العظيم بالكفران والهجران مع ما فيه من مظاهر إعجازه وهداياته ، فأتي بحرف النداء ليصور مدى بث حزنه ـ ﷺ ـ إلى الله وشكواه على قومه .

– المطلب الثاني : أنواع النداء في القرآن الكريم ومغزاه :

لا شك أنَّ النِّداء يعدُّ في كتاب الله – تعالى – أحد الأساليب البلاغية ووجهاً من الوجوه البيانية للقرآن الكريم التي تدلُّ على العناية الكاملة والاهتمام العظيم بالمطلوب وبالمنادى ، وهذا أمر معروف مشهور..

---

(١) [سورة الزخرف آية رقم : ٨٨]

(٢) [سورة الفرقان آية رقم : ٣٠]

(٣) [معاني التراكيب ص ١١٦٧ ، ١١٧ د/ عبد الفتاح لاشين . ط / دار الطباعة المحمدية. د . ت].

وإذا ما تأملنا في كتاب الله ــ تعالى ــ يظهر لنا نوعان من نداء الله ــ تعالى ــ الموجه إلى خلقه، وهذان النوعان هما : نداء تكويني ، ونداء تكليفي .

أمَّا النداء التكويني : فهو نداء الله ــ تعالى ــ لغير العقلاء مما خلق، ومثاله : قوله ــ تعالى ــ ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي [1]﴾ وقوله ــ تعالى ــ ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيم [2]﴾

وقوله ــ تعالى ــ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ...﴾ الآية[3] .

وفائدة النداء في هذه الآيات وفي غيرها من مثيلاتها : تصوير مطاوعة الكائنات لخالقها ، وخضوعها لسنته ، كما يخضع المنادَى حين ينادَى مِمَّن فوقه .. [4]

وأمَّا النداء التكليفي فهو : نداء الله ــ تعالى ــ الموجه إلى العقلاء ، وهو إمَّا أنْ يتضمن أمراً يطلب فعلاً ، وإما أنْ يتضمن نهياً يطلب تركاً .

ولهذا النداء التكليفي أنواع يساعدنا ذكرها على بيان ما قصدنا إليه من عنوان هذا البحث " النداءات الإلهية في سورة التحريم " وأوّل هذه الأنواع من النداء التكليفي :

---

(١) [سورة هود آية رقم : ٤٤].

(٢) [سورة الأنبياء آية رقم : ٦٩].

(٣) [سورة سبأ آية رقم : ١٠].

(٤) [فالنداء في الآيات الكريمة على سبيل الاستعارة ، وعلى هذا جمهور الحذاق من العلماء. وقيل إنَّ الله أحدث فيما إدراكاً وفهماً لمعاني الخطاب.[ينظر:البحر المحيط٥ــ٢٢٩ط دار الكتب العلمية/بيروت -الأولى١٤٢٢هـ ــ٢٠٠١ م].

ـ نداء الله الناس جميعاً : إمَّا بالوصف العام للإنسانية وإمَّا بوصف البنوة للأب الأوَّل سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ.

أما الأوَّل : فيكثر عندما يتعلق النداء بالأصول العامة للدين ، من الإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ، والوحي والرسالة ، واليوم الآخر ، وما يتعلق بذلك .

قال ـ تعالى ـ:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [1]﴾

وقال ـ تعالى ـ:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ...﴾ الآية [2] .

وقال ـ تعالى ـ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الآية[3]

وأمَّا الثاني : فيكثر عندما يتعلق النداء بالنصيحة والعظة والتحذير والمِنَّة ..

كقوله ـ تعالى ـ:﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ..﴾ الآية [4] .

وكقوله ـ تعالى ـ :﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ [5]﴾ الآية.

---

(١) [سورة البقرة آية رقم : ٢١].

(٢) [سورة النساء آية رقم : ١٧٠].

(٣) [سورة الحج آية رقم : ٥].

(٤) [سورة الأعراف آية رقم : ٢٧].

(٥) [سورة الأعراف آية رقم : ٣١].

النوع الثاني من النداء التكليفي : نداء الشعوب : وليس في القرآن نداء لشعب من الشعوب إلا لبني إسرائيل ، وذاك في أكثر من موضع من مثل قوله ــ تعالى ــ:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي .. ﴾الآية[1]

ولعلَّ السرَّ في اختصاصهم بالنداء دون نداء شعوب الأرض فلكثرة ما عالج الله – سبحانه وتعالى ــ به هذا الشعب من النعماء والضراء ، ثم لم تنفع معهم تلك المعالجة قديماً وحديثاً ، وكان لله ــ سبحانه وتعالى ــ عليهم فضل عظيم في شخص أبيهم (إسرائيل) ، يجب عليهم أن يذكروه وأنْ يقدروه ، فيتحولوا عن موقف المكابرة والعناد إلى موقف الاستجابة والطاعة .

النوع الثالث : نداء الطوائف :

وهذا في القرآن الكريم على نوعين :

أحدهما : نداء طائفة اليهود والنصارى بوصف أهل الكتاب إما تبكيتاً لهم على ما كانوا يرتكبون من أفانين التضليل وأنواع التشكيك التي كانوا يحاربون بها الدعوة المحمدية ، قال ــ تعالى ــ:﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [2]﴾

وإمَّا أنْ يناديهم الله بهذا الوصف : ترغيباً وإغراءً لهم ؛ لتلبية الحق الذي يدعون إليه والذي لم يكن بالأمر الجديد عليهم:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ..﴾ الآية[3]

---

(١) [سورة البقرة آية رقم : ٤٠].

(٢) [سورة آل عمران آية رقم : ٧١].

(٣) [سورة آل عمران آية رقم : ٦٤].

النوع الآخر من نداء الطوائف : نداء طائفة الذين آمنوا بسيدنا محمد – ﷺ – وبكلّ ما يجب الإيمان به – نداء هذه الطائفة بوصف المؤمنين إذ إنهم – وبحكم هذا الوصف – أقدر على الاستجابة وامتثال ما طلب منهم وكلفوا به. وتنبيهاً في نفس الوقت إلى رفعة شأنهم وامتداح أمرهم عند ربهم ونداء هذه الطائفة بوصف الإيمان كثير جداً ، وله في سورتنا محل البحث موضعان هما : قوله ــ تعالى ــ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ الآية[1]

وقوله ــ تعالى ــ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ...﴾ الآية [2] .

وفي غير هذين الموضعين من سورة التحريم ما يقرب من سبع وثمانين نداء بهذه الصيغة في باقي القرآن الكريم تدور كلها حول : امتثال الأحكام والعمل بمقتضاها ، وكذلك الحثّ على الأخلاق والتحلي بها.

النوع الرابع من أنواع النداء التكليفي : نداء الجماعة المحدودة العدد وهذا في القرآن الكريم لأزواج رسول الله – ﷺ – تعظيماً لمقامهنّ وتنبيهاً على أنهنّ قدوة لغيرهن .. وأنهنّ وبحكم ذلك تكثر المسئولية عليهن ويعظم الأجر والثواب لهن إن اتقين وأحسنّ ، كما يضاعف لهن العذاب إن أتين ما أوجب الله العقوبة على فعله .. قال ــ تعالى ــ:﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ .. ﴾ الآية[3]

---

(١) [سورة التحريم آية رقم : ٦].

(٢) [سورة التحريم آية رقم : ٨].

(٣) [سورة الأحزاب آية رقم :٣٠].

وقال ــ تعالى ــ :﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ... ﴾ الآية [١]

النوع الخامس من النداء التكليفي : نداء الأشخاص .

وهو إمَّا نداء بالاسم أو بالصفة أو بحالة صار إليها لمناسبة خاصة .

أمَّا نداء الأشخاص فهو في القرآن الكريم من الله ــ تعالى ــ لبعض أنبيائه قبل زمن النبي-ﷺ-

* إمَّا استنهاضاً لهمَمِهم كقوله ــ تعالى ــ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ ..﴾ الآية[٢]

* وإمَّا تنبيهاً إلى خطرِ ما كُلِّفوا به ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّاجَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ الآية[٣]

* وإمَّا تهدئة لروعهم وتسكيناً لأفئدتهم :﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ [٤]﴾"[٥]

النوع الثاني من نداء الأشخاص وهو النداء بالصفة والمراد بها هنا " صفة النبوة " وهذا النِّداء في كتاب الله ــ تعالى ــ قد خصَّ به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ــ ﷺ ــ فما ناداه ربُّه في كتابه إلا بـ " يا أيُّها النبيُّ " أو " يا أيُّها الرَّسُولُ ".

---

(١) [سورة الأحزاب آية رقم :٣٢].

(٢) [سورة مريم آية رقم : ١٢].

(٣) [سورة ص آية رقم : ٢٦].

(٤) [سورة القصص آية رقم : ٣١].

(٥) [ينظر:تفسير القرآن الكريم ص٩٥للإمام الأكبر الشيخ/محمود شلتوت / ط/دار الشروق ط ١٢ ــ ٢٠٠٤ م – ١٤٢٤ هـ]

وعلى ذلك نقول : إنَّ المعتاد في أمر نداء الأشخاص هو النِّداء عليهم بأسمائهم مع ما في ذلك من الإقبال عليهم ، والتلطف بهم تهيئة لاستقبال ما يرد إليهم من ربهم من أمرٍ أو نهيٍ ، فإذا نادى الله على واحد بصفته فهذا ما يحتاج إلى زيادة نظر وتأمل ..

والسؤال على ذلك : لماذا نادى اللهُ رسوله – ﷺ – بصفة النبوة دون اسمه – ﷺ – كسائر الأنبياء والمرسلين ؟

يقول الإمام الزمخشري – رحمه الله –:" جعل نداءه بالنبيِّ والرَّسُول في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ [1]﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ [2]﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ [3]﴾ وترك نداءه باسمه كما قال : يا آدم، يا موسى ، يا عيسى ، يا داود .. كرامة له وتشريفاً وربأ بمحله، وتنويها بفضله .." هـ[4].

وقول بعض المفسرين : إنَّه ربّما يكون نداء سائر الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ في كتبهم أيضاً على نحو منه ، وحكي في القرآن بأسمائهم لئلا يلتبس الأمر على السامع هل المذكور النبي ــ ﷺ ــ محمد ــ ﷺ ــ أم غيره من الأنبياء السابقين .[5]

---

(١) [سورة الأحزاب آية رقم : ١].

(٢) [سورة التحريم آية رقم : ١].

(٣) [سورة المائدة آية رقم : ٦٧].

(٤) [الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ٣ – ٢٤٨ ط – دار الفكر] .

(٥) [ينظر : روح المعاني ١٢ – ٢١٧ ط – دار الفكر – بيروت ١٤١٧ هـ ــ ١٩٩٧ م، وفتح الخبير في أدوات التفسير ج ٢ – ص ١٦٦ ، ١٦٧ للأستاذ الدكتور / سيد مرسي إبراهيم – ط / أولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م].

قلتُ :هذا تعليل ضعيف؛ إذ كان يمكن دفع هذا الالتباس بأن يضاف بعد ذكر الصفة اسم الرسول المنادى حقيقة فيقال مثلاً: يا أيُّها النبي إبراهيم ، يا أيُّها النبي موسى ، يا أيُّها النبي محمد.. الخ

فالأولى في تعليل ندائه ـ ﷺ ـ بالصفة أنْ يكون ذلك تعظيماً وتشريفاً وتكريماً له ـ ﷺ ـ تحقيقاً لمعنى الرفعة في قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [1]﴾ وكذلك الأفضلية والسيادة كما نوَّه بذلك -ﷺ- على سبيل الشكر:" أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ"[2] وفي رواية" أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [3]"[4]

هذا وقد نودي-ﷺ- بوصف النبوة في موضعين من سورة التحريم- موضع البحث – وهما :

١- قوله ـ تعالى ـ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ..﴾ الآية[5]

٢ – وقوله ـ تعالى ـ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ..﴾ الآية[6]

---

(١) [سورة الشرح آية رقم : ٤] .

(٢) [صحيح مسلم كتاب الفضائل ، بَاب تَفْضِيلِ نَبِيِّنَا ـ ﷺ ـ عَلَى جَمِيعِ الْخَلاَئِقِ رقم الحديث : ٤٢٢٣].

(٣) [خصَّ (يوم القيامة) لأنه لا ينازعه أحدٌ السيادة في هذا اليوم ، أمَّا في الدنيا فقد ادَّعى ذلك لنفسه بعضُ ملوك الدنيا[السنن الزكية في الفضائل النبوية ص ٥٨ د/سعد سعد جاويش ط / دار عطوة للطباعة ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م].

(٤) [صحيح البخاري كتاب التفسير باب { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } رقم : ٤٣٤٣].

(٥) [سورة التحريم آية رقم ١] .

(٦) [سورة التحريم آية رقم : ٩].

وفي أحد عشر موضعاً في غير سورة التحريم . منها : ثلاثة في سورة الأنفال آية رقم : ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، وموضع واحد في سورة التوبة آية رقم : ٧٣ ، ومواضع خمسة في سورة الأحزاب آية رقم : ١ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٩ ، وموضع واحد في سورة الممتحنة آية رقم : ١٢ وموضع واحد في سورة الطلاق آية رقم: ١ .

ونودي ــ ﷺ ــ بوصف الرِّسالة ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ في موضعين فقط وكلاهما في سورة المائدة آية رقم : ٤١ ، ٦٧ .

وسأبين ــ بعون الله وتوفيقه ــ الفرق بين ندائه – ﷺ – بوصف النبوة وبين ندائه بوصف الرِّسالة عند استعراض النداءات في سورة التحريم .

هذا عن نداء الشخص بالاسم والصفة، أمَّا عن ندائه بحالة صار إليها لمناسبة خاصة فقد جاء ذلك أيضاً في كتاب الله ــ تعالى ــ لرسول الله ــ ﷺ ــ دون غيره ..

فقد نادى اللهُ سيدَنا محمداً ــ ﷺ ــ بقوله:﴿ يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ ﴾[1] وبقوله ﴿ يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ ﴾[2] وفي الخطاب بهذين الوصفين تأنيس له وملاطفة على عادة العرب في اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها ؛ كقوله ــ ﷺ ــ لعليٍّ ــ ﷺ ــ حين رآه وهو نائم قد لصق بجنبه التراب :" قم يا أبا تراب "[3]

---

(١) [سورة المزمل آية رقم : ١].

(٢) [سورة المدثر آية رقم : ١].

(٣) [الحديث أخرجه : البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب علي ابن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة – رضي الله تعالى عنهم – باب من فضائل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه].

ويزاد على ذلك أنَّ النداء بهذين الوصفين لرسول الله ـ ﷺ ـ قد وقعا في أوائل ما نزل من كتاب الله ـ تعالى ـ تقوية لهمته – ﷺ – وإشعاره بقرب الله منه وعنايته به على كافة أحواله وشئونه – ﷺ – مما لـه الأثر البالغ في تحمل مشاق الدعوة ، وطرح أي دافع يؤدي إلى التكاسل عنها .. (١)

تلك هي أنواع النداء ومغزاه في كتاب الله ـ تعالى ـ ، تُعدُّ ـ مع ما سيأتي ذكره في المطلب الثالث ـ تمهيداً يُيَسِّرُ استعراض النداءات الإلهية في سورة التحريم .

ـ المطلب الثالث : إلقاء الضوء على سورة التحريم من حيث تسميتها بهذا الاسم، وسر ذلك، ومكان نزولها، وعدد آيها، وموضوعها بوجه عام، ومناسبتها لما قبلها :

أمَّا عن تسمية السورة : فلها أكثر من اسم – كما ذكر الطاهر بن عاشور – فهي سورة (يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك) ، وسورة (التحريم) وذلك في كتب السنة وكتب التفسير، وسورة (اللِّمَ تُحرِّم) بتشديد اللاّم مكسورة وبفتح الميم وضم التاء محققة وتشديد الراء مكسورة بعدها ميم على حكاية جملة (لم تحرم) ، وجعلها بمنزلة الاسم وإدخال لام تعريف العهد على ذلك اللفظ وإدغام اللامين .

وتسمى كذلك سورة (المتحرم) وسورة (النبي ـ ﷺ ـ) ، وقال الألوسي : إنَّ ابن الزبير سمَّاها " سورة النساء " لكنَّ الطاهر بن عاشور يقول : " قلت : ولم أقف عليه، ولم يذكر صاحب الإتقان هذين في أسمائها ."هـ (٢)

---

(١) [ينظر : البحر المحيط ٨ / ٣٥٢ ، ٣٦٢].

(٢) [التحرير والتنوير ١٣ – ٣٤٣ ط / دار سحنون للنشر والتوزيع (تونس) وينظر: روح المعاني ١٥ – ٢١٧ ، وتفسير القرطبي ١٠ – ٦٦٥٦ طبعة خاصة بترخيص من دار الشعب دار الريان للتراث،والإتقان ١–١٥٩مكتبة دار التراث – القاهرة].

تلك أسماء السورة الكريمة وليس فيها شئ مرفوع إلى رسول الله – ﷺ – ، والموقوف منها تسميتها بـ " سورة التحريم "– كما هو ثابت في أثر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والذي سيأتي ذكره عند بيان مكان نزول السورة الكريمة .

وأمّا ما ورد مرفوعاً" من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً " فهو حديث موضوع [1].

وإذا كان لنا أن نبحث عن سرٍّ تسمية السورة بأحد هذه الأسماء فليكن ذلك من خلالِ تلك التسمية التي اشتهرت بها السورة الكريمة في كتب التفسير وكتب الحديث أعني تسميتها بـ " التحريم ".

وللوقوف على سرٍّ ذلك أذكر للقاريء الكريم ما قاله الإمام الزركشي في كيفية الوقوف على وجه اختصاص كل سورة بما سميت به . حيث قال :"

---

(١) [نبَّه العلامة ابنُ حجر في تخريجه لأحاديث الكشاف للزمخشري إلى وضعه حيث قال ـ أي الإمام ابن حجر ـ :" هذا من جملة حديث أبي بن كعب المشهور في فضائل السور " سورة سورة " يذكره الواحدي والثعالبي في أوائل السور والزمخشري في آخرها، وهو حديث موضوع مكذوب على رسول الله – ﷺ –"هـ.

ينظر : الكافي الشافى لابن حجر على هامش تفسير الكشاف للزمخشري (رقم ١٦٤٢) م ٦ – ص ١٦٨ ، م ١ ـ ص ٢٨٥ (رقم ٣٤٦) / ط / مكتبة العبيكان / الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م .

وقال ابن الصلاح – رحمه الله –: قد وُضعت أحاديث طويلة يشهد بوضعها ركاكة ألفاظها ومعانيها ... إلى أن قال :" وهكذا حال الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي – ﷺ – في فضل القرآن سورة فسورة . بحث باحثٌ عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه ، وإنَّ أثر الوضع لبين عليه .

ولقد خطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم ، والله أعلم.[مقدمة ابن الصلاح ص ٤٧].

لا شك أنَّ العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذَ أسمائها من نادرٍ أو مستغرَب يكون في الشيء من خَلْق أو صفة تخصُّه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمَّى . ويسمُّون الجملةَ من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماءُ سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها ، وعجيب الحكمة فيها . وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردَّد فيها من كثير من أحكام النساء ، وسميت سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها ؛ إلاَّ أنَّ التفصيل الوارد في قوله ــ تعالى ــ: (وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً) إلى قوله (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ [1] لم يرد في غيرها ؛ كما ورد ذكر النساء في سُوَر عدة ، إلاَّ أنَّ ما تكرر وبُسط من أحكامهنَّ لم يرد في غير سورة النساء ، وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها فسميت بما يخصها "هـ[2].

ويؤكد الشيخ شلتوت ما ذهب إليه الإمامُ الزركشي فيقول :" ونحن إذا تتبعنا أسماءَ السور في القرآن الكريم نجدها تشير إلى أهمٍّ وأغرب ما اشتملت عليه السور ، فسورة البقرة مثلاً سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرة أُمِر بنو إسرائيل بذبحها إذ كان سبيلاً لمعرفة الجاني في حادثةِ قَتْلٍ لم يعرف مرتكبها "هـ[3].

وبناءً على هذا نجد السورةَ الكريمة (سورة التحريم) ، حيث سميت بأهمِّ ما تضمنته وتناولته ، ألا وهو ما كان من رسول الله – ﷺ – من تحريم العسل أو مارية وامتناعه عن أيهما، كما ستأتي الإشارة إليه ..

---

(١) [سورة الأنعام من الآية ١٤٢ ــ ١٤٤].

(٢) [البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧٠ ــ ٢٧١].

(٣) [تفسير القرآن الكريم للشيخ شلتوت . ص ٩٠].

ولا شك أنَّ أمر هذا التحريم الذي حصل من رسول الله - ﷺ - ومراجعة الله ــ تعالى ــ لنبيه فيه .. يعدُّ من الأمور المهمة التي تستحق أنْ تعالج من قبَل الوحي الإلهي ، بل ويعد ذلك عنواناً للسورة الكريمة ..

أقول ذلك رداً على بعض المستشرقين الذي استنكر على الوحي الإلهي أن يُعنى بنزاع ثار في بيت محمد ، وأن يشغل الناس به ... إلى آخر تلك الشبهات التي لا يتورع أعداء الله عن إطلاقها بين الحين والآخر .[1]

كان هذا عن اسم السورة الكريمة وسرِّ التسمية .

أمَّا عن مكان نزول سورة التحريم وعدد آيها : فهي مدنية ؛ قال ابن عطية : بإجماع أهل العلم بلا خلاف "هـ[2] وتبعه الإمام القرطبي [3].

ومن أدلة مدنيتها :

١ – ما عزاه السيوطي في إتقانه[4] وكذلك في الدُّر المنثور [5] لأبي جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ [6] " بإسناد جيد ": عن مجاهد عن ابن

---

(١) [ينظر:نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص٤٧٠/الشيخ محمد الغزالي ط / دار الشروق ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م].

(٢) [المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز ٥ـــ٣٢٩ – ط– دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م].

(٣) [الجامع الأحكام القرآن للقرطبي ١٠ – ٦٦٥٦ طبعة خاصة بترخيص من دار الشعب، دار الريان للتراث].

(٤) [الإتقان ١ – ٢٤ ، ٢٥ مكتبة دار التراث – القاهرة].

(٥) [الدر المنثور ٨ – ٣٦٥ ط دار الفكر بيروت – الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م].

(٦) [الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ص ٢٣٨ – مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة]. وموضع الشاهد من الأثر :"... ونزل بالمدينة سورة الأنفال وبراءة والنور والأحزاب وسورة محمد والفتح والحجرات والحديد وما بعدها إلى التحريم "].

عباس – رضي الله عنهما – في عدِّ المكي والمدني من السور .. وفيه أنَّ سورة التحريم مدنية .."[1] .

قلت : وذلك دون استثناء شيء منها .

٢ – النداء فيها بـ " يا أيُّها الذين آمنوا ":

يقول الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله تعالى –:" إنَّ المتتبع للنداءات الإلهية في القرآن الكريم يجد أكثرها موجهاً إلى المؤمنين ، فقد بلغت نداءاتهم تسعة وثمانين نداء ، وأنَّه لم يقع نداءٌ واحد منها في آية مكية ، وإنَّما وقعت كلُّها في الآيات التي نزلت بعد أن تكون المسلمون بالهجرة جماعة لها كيان خاص ، وقوة خاصة ، وسبيل خاص "هـ[2] .

---

(١) [قال الإمام السيوطي بعد أن ساق هذا الأثر من كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس :" هكذا أخرجه بطوله ، وإسناده جيد ، رجاله كلهم ثقات من علماء العربية المشهورين "هـ [الإتقان ١ــ ٢٥].

(٢) [تفسير القرآن الكريم للشيخ شلتوت ص ٩٨ ، ٩٩]. قلت : ويؤيد كلام الشيخ شلتوت ما ذكره السيوطي في إتقانه في ضوابط المكي والمدني ، حيث قال :" أخرج الحاكم في مستدركه [٣ ــ ٢٠ رقم : ٤٢٩٥ وسكت عنه الذهبي . دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠] والبيهقي في الدلائل [٧ ــ ١٤٤ دار الريان للتراث] والبزار في مسنده [٤ ــ ٤١٥ بيروت] من طريق الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، قال : ما كان " يا أيها الذين آمنوا " أنزل بالمدينة، وما كان (يا أيها الناس) فبمكة . وأخرجه أبو عبيد في الفضائل عن علقمة مرسلا . وأخرج عن ميمون بن مهران ، قال : ما كان في القرآن " يا أيها الناس " أو " يا بني آدم " فإنَّه مكي ، وما كان " يا أيها الذين آمنوا " فإنَّه مدني . قال ابنُ عطية وابن الغرس وغيرهما : هو في " يا أيها الذين آمنوا " صحيح ، وأما " يا أيُّها الناس " فقد يأتي في المدني .." هـ[الإتقان ١ – ٤٧].

٣ – ذكر المنافقين فيها في قوله ــ تعالى ــ:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ الآية[١]

ذلك أنَّ النِّفاق إنَّما كان ظهوره في المدينة[٢] لمَّا قويت شوكةُ المسلمين وصار لهم شأن عظيم.

٤ ــ الآثار الواردة في أسباب نزول هذه السورة تؤكد ــ بلا ريب ــ مدنيتها فحديث هذه الآثار – كما سيأتي بيانه – عن عائشة وحفصة وزينب بنت جحش – رضي الله عنهن – يَدلُّنا على مدنية سورة التحريم؛ إذ هؤلاء – كما لا يخفى – لم يكنَّ أزواجاً لرسول الله ــ ﷺ ــ إلا بعد هجرته الشريفة – عليه الصلاة والسلام –.

قلت : تلك علامات ظاهرة على مدنية سورة التحريم دون استثناء شئ من مدنيتها .

لكنَّنا نرى من استثنى من مدنية سورة التحريم آيات منها نزلت بمكة .

وهذا ما نقله السيوطي في إتقانه عن قتادة حيث قال :" نزل في المدينة من القرآن : البقرة وآل عمران ، والنساء ... إلى أن قال .." ويا أيها النبي لم تحرم،إلى رأس العشر.. "هـ[٣] .

ويوضح لنا الشيخ الطاهر بن عاشور هذا القول فيقول :" وقال في الإتقان عن قتادة : إنَّ أولها إلى تمام عشر آيات وما بعدها مكي، كما وقعت

---

(١) [سورة التحريم آية رقم : ٩].

(٢) [قال مكي (كما في الإتقان ١ – ٤٨):" كلُّ سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية ؛ زاد غيره : سوى العنكبوت].

(٣) [الإتقان ١ – ٢٨].

حكاية كلامه.ولعلَّه أراد إلى عشر آيات،أي أنَّ الآية العاشرة من المكي؛ إذ من البعيد أن تكون الآية العاشرة مدنية والحادية عشر مكية "هـ"[1]

قلت : يقصد الشيخ الطاهر بن عاشور – وذلك على ما يفهم من قول قتادة – أنَّ قوله تعالى :﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ... ﴾ وهي الآية العاشرة من السورة أن لا تكون مدنية إذ إنَّها مع تاليتها ــ أي قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ... ﴾ الآية [2] ــ في سياق واحد كما هو واضح من عطف " وضرب " الثانية على " ضرب " الأولى .

فهما – أي هاتان الآيتان مع الآية الثانية عشر– مما نزل بمكة .

قلت : القولُ باستثناء هذه الآيات الثلاث من مدنية سورة التحريم مما يحتاج إلى نظر وذلك :

أولاً : أنَّ أثر قتادة – رغم صحته [3] – تضمن أشياء تتعارض مع ما هو ثابت ــ بسند جيد ــ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في بيان المكي

---

(١) [التحرير والتنوير ١٣ – ٣٤٣].

(٢) [سورة التحريم آية رقم : ١١].

(٣) [الأثر ذكره السيوطي في إتقانه حيث قال : قال أبو بكر بن الأنباري حدثنا إسماعيل ابن إسحاق القاضي ، حدثنا حجاج بن منهال ، نبأنا هشام عن قتادة قال : نزل في المدينة .. الخ " والأثر سنده صحيح وذلك كالآتي :

أ – أبو بكر بن الأنباري : (٢٧١ – ٣٢٨ هـ = ٨٨٤ – ٩٤٠ م) محمد بن القاسم بن محمد ابن بشار، أبو بكر الأنباري ، صاحب التصانيف الكثيرة . من كتبه (الزاهر) في اللغة و(إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله ﷻ – و (عجائب علوم القرآن) و (خلق الإنسان) و (الأمثال) و (الأضداد) وأجل كتبه (غريب الحديث) [الأعلام ٦ــ ٣٣٤].=

والمدني، ففي أثر قتادة أنَّ الرَّعدَ والنحل والحجَّ مدنيات، مع أنَّ أثر ابن عباس يعدهن مكيات، مع استثناء ثلاث آيات من آخر النحل، وثلاث آيات من سورة الحج ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ .. [1]﴾ إلى تمام الآيات الثلاث .

فتقديم ما هو موقوف أولى مما هو مقطوع ، والأمر كما قال الإمام الألوسي – رحمه الله –:" الأقوى في الاستدلال بالنقل عن الصحابة الذين شاهدوا الوحي والتنزيل "هـ[2]

=ب ــ إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد القاضي شيخ المالكية . روى عن عبد الله بن مسلمة القعنبي ، وحجاج بن منهال . ثقة صدوق .[الجرح والتعديل ٢ ــ ١٥٨ رقم ٥٣١ ط /بيروت ، والمعين في طبقات المحدثين١ــ٢٥ لــ/ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي.دار النشر/دار الفرقان – عمان –الأردن– ١٤٠٤ الطبعة الأولى].

ج ــ حجاج بن المنهال الأنماطي السلمي أبو محمد ثقة فاضل .[الجرح والتعديل ٣ ــ ١٦٧ رقم : ٧١١ ، وتقريب التهذيب لابن حجر ١ ــ ١٥٤ رقم ١٦٣ ط– دار المعرفة – بيروت]

د ــ هشام بن أبى عبد الله الدستوائي (ودستواء كورة من الأهواز كان يبيع الثياب التي تجلب منها فنسب إليها) روى عن قتادة ويحيى بن أبى كثير وحماد بن أبى سليمان وغيرهم قال فيه أبو داود : كان هشام الدستوائي أمير المؤمنين في الحديث . وقال فيه يحي بن معين:هشام الدستوائي ثبت.وقال ابن حجر:ثقة ثبت. توفى سنة ١٥٣ أو سنة ١٥٤ هـ[تقريب التهذيب لابن حجر ٢ ــ ٣١٩ رقم : ٨٩ ، و الجرح والتعديل ٩ــ ٥٩ رقم ٢٤٠].

هـ ــ قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري ثقة ثبت يقال ولد أكمه وهو رأس الطبقة الرابعة مات سنة سبع عشرة ومئة .[تهذيب الكمال ٢٣ــ ٥١٧ رقم : ٤٨٤٨ لــ/ يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي . ط / مؤسسة الرسالة – بيروت / الأولى ، ١٤٠٠ – ١٩٨٠ تحقيق : د . بشار عواد معروف ، وتقريب التهذيب ١ ــ ١٢٣ رقم : ٨١ ، والجرح والتعديل ٧ ــ ١٣٣ رقم ٧٥٦].

(١) [سورة الحج آية رقم : ١٩].

(٢) [روح المعاني ١ ــ ٦٠].

ثانياً : إذا كانت هذه الآيات مستثناة من مدنية سورة التحريم(على حدِّ ما ورد في هذا القول) فكيف كانت تعدّ في مكة ؟

إنَّ هذا القول لم يذكر أنَّ تلك الآيات من أية سورة كانت تُعدُّ في مكة إلى أنْ نزلت سورة التحريم بالمدينة وهذا غريب . ولم يعين أنه في أية سورة كان مقروء .؟

هذا عن مكان نزول السورة الكريمة .

أمَّا عن عدد آيها فقد اتفق أهلُ العدد على أنَّ عدَّةَ آيها اثنتا عشرة .[1]

وإذا ما استعرضنا السورة بوجهٍ عام وجدناها تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله – ﷺ – وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ...

وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات ، وبخاصة دعوة الزوجين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه في السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية ، ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار . كما ورد مشهد للكافرين في هذه النار .

واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر في بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان في بيت كافر . وكذلك عن مريم ابنة عمران التي تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .. [2] .

---

(١) [التحرير والتنوير ١٣ ــ ٣٤٣].

(٢) [ينظر: في ظلال القرآن٦ــ٣٦١٠ للأستاذ/سيد قطب ط – دار الشروق– السابعة والعشرون١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م].

أمَّا عن مناسبة سورة التحريم بسابقتها ــ أي سورة الطلاق ــ فالمناسبة ظاهرة .. " إذ كل من السورتين يشترك في الافتتاح بخطاب النبي ــ ﷺ ــ كما يشترك كلٌ منهما في الأحكام المخصوصة بالنساء كما أنَّ في آخر سورة الطلاق ــ أي في قوله ــ تعالى ــ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ .. ﴾ الآية[1] ــ ما يدلُّ على عظمة الله ــ تعالى ــ ، وكمال قدرته وكمال علمه ، ولما كان الأمر كذلك فلا يصح تحريم ما أحل الله ، ولهذا قال ــ تعالى ــ:{ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ } "[2] .

ومن لطائف المناسبة بين السورتين ما ذكره الإمام السيوطي حيث قال: " ولمَّا كانت تلك في خصام نساء الأمة ، ذكر في هذه خصومة نساء النبيّ ــ ﷺ ــ ، إعظاماً لمنصبهن أنْ يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة ، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة : آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران "هـ[3] .

تلك عدة نقاط متصلة بالسورة الكريمة من حيث التسمية وسرّها ومكان النزول وعدد الآيات وعرض السورة بوجه عام وصلة السورة بما قبلها .

وكان لا بُدَّ من بيان هذه النقاط لتكون عوناً على بيان المقصود الأصلي من عنوان هذا البحث المتواضع " النداءات الإلهية في سورة التحريم ".

وفيما يلي استعراض تلك النداءات ــ والله وليُّ التوفيق ــ.

---

(١) [سورة الطلاق آية رقم : ١٢].

(٢) [ينظر:مفاتيح الغيب ١٥ ــ ٥٨٥ ط – دار الغد – الأولى ١٤١٢ هـ ــ ١٩٩٢ م.والبحر المحيط ٨ ــ ٢٨٤].

(٣) [تناسق الدرر في تناسب السور ص ١٢٧ . للسيوطي – ط – دار الكتب العلمية – بيروت .

المطلب الرابع : استعراض النداءات الإلهية في سورة التحريم :

أقول – وبالله التوفيق –: إنَّ النَّاظرَ إلى النداءات الإلهية في هذه السورة الكريمة بوجه عام يجد أنَّ السورة قد اشتملت على خمسة نداءات ، بدأت بنداء النبي–ﷺ– ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾الآية [١]

وختمت كذلك بندائه – ﷺ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ..﴾ الآية[٢]

وبين هذا وذاك يأتي النداء للمؤمنين في موضعين من السورة، أولهما : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ..﴾ الآية [٣]

وثانيهما : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً .. ﴾ الآية[٤]

ويتوسط بين هذين النداءين للمؤمنين نداءٌ واحد للكافرين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا اليَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٥]

تلك هي مواضع النداء في السورة الكريمة على سبيل الإجمال، أمَّا على سبيل التفصيل فهي كالتالي :

<u>النداء الأول</u> ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٦] .

---

(١) [سورة التحريم آية رقم : ١].
(٢) [سورة التحريم آية رقم : ٩].
(٣) [" " " : ٦].
(٤) [" " " : ٨].
(٥) [" " " : ٧].
(٦) [" " " : ١].

إنَّ أمْرَ هذا النداء لرسول الله – ﷺ – والتي بدأت به السورة الكريمة يدور حول معنى التكريم والعتاب، أمَّا التكريم ففي ندائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بوصف النبوة تعظيماً لشأنه وعناية به – ﷺ – ، وأما العتاب فلأمرٍ ما جرى منه – ﷺ – من تحريم ما أحلَّه الله له .. يقول الإمام الألوسي – رحمه الله – :" وفي ندائه – ﷺ – بـ " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ " في مفتتح العتاب من حسن التلطف به والتنويه بشأنه – عليه الصلاة والسلام ـ ما لا يخفى "هـ[1]

ولكي يتضح هذا المعنى من هذا النداء نتعرف على سبب نزول الآية الكريمة والذي ورد في شأنه روايات كثيرة، ونكتفي بما اشتهر منها، وأول روايةٍ روايةُ الصحيحين البخاري ومسلم من رواية عروة عن عائشة قالت : كان رسول الله – ﷺ – يحب الحلواء ويحب العسل، وكان إذا صلى العصر أجاز على نسائه فيدنو منهن فدخل على حفصة، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عُكةَ [2] عسلٍ ، فسقت رسول الله – ﷺ – منه شربة ، فقلت : أمَا والله لنحتالن له ، فذكرت ذلك لسودة ، وقلت لها : إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك ، فقولي له : يا رسول الله أكلت مغافير [3] ، فإنَّه سيقول : لا ، فقولي له : ما هذه الريح ؟ وكانَ رسول

---

(١) [روح المعاني ١٥ ـ ٢١٩].

(٢) [العُكَّة بالضم : آنِيَةُ السَّمْنِ أصْغَرُ من القِرْبَةِ .[القاموس المحيط ١ـــ ١٢٢٥ لـــ/ لمجد الدين الفيروز آبادي ، نشر مؤسسة الرسالة – الثانية ١٤٠٧ هـ].

(٣) [المغافير : شيء كالصمغ ينضحه العرفط حلو كالناطف وله ريح منكرة والعرفط نوع من شجر العضاه والعضاه من شجر الشوك كالطلح والعوسج والعرفط ويقال قد أغفر العرفط إذا ظهر ذلك منه ، وخرج الناس يتغفرون إذا خرجوا يجمعون ذلك، وواحد المغافير مغفور، وليس في كلام العرب مفعول بضم الميم إلا ثلاثة أمثلة مغفور ومغرود (ضرب من الكمأة) ومنخور للمنخر . ينظر: شرح النووي لصحيح مسلم { ٥ ـ ٢٦ دار الغد } وتفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ١ـــ ٢٦٢ لـــ / محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي ط : مكتبة السنة–القاهرة –١٤١٥– ١٩٩٥م طبعة:الأولى].

الله – ﷺ – يشتد عليه أن توجد منه الريح ، فإنه سيقول : سقتني حفصة شربة عسل ، فقولي له : جرست نحله العرفط [1] وسأقول ذلك وقوليه أنت يا صفية، فلما دخل على سودة ، قلت تقول سودة والذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت لي ، وإنه لعلى الباب فرقا منك فلما دنا رسول الله – ﷺ – قلت يا رسول الله أكلت مغافير ؟ قال : (لا) ، قلت فما هذه الريح ؟ قال (سقتني حفصة شربةَ عسل). قلت جرست نحله العرفط ، فلما دخل عليَّ قلت له مثل ذلك ، ودخل على صفية فقالت له مثل ذلك ، فلمَّا دخل على حفصة قالت له يا رسول الله : ألا أسقيك منه ؟ قال (لا حاجة لي به). قالت تقول سودة : سبحان الله ، لقد حرمناه قالت قلت لها : اسكتي "[2]

وهناك رواية مشهورة في البخاري ومسلم أيضاً من حديث عبيد بن عمير عن عائشة أنَّ التي شرب عندها العسل :زينب بنت جحش ، فتواطأت حفصةُ وعائشةُ أن تقولا له ذلك القول[3] .

قال الإمام ابن كثير ــ بعد أن ساق حديث عبيد بن عمير وحديث عروة ــ:" وقد يقال : إنهما واقعتان ، ولا بُعد في ذلك ... "هـ[4] .

---

(١) [جرست نحله العرفط : أي أكلت نحله من هذا الذي يجري من العرفط وهو المغافير ويقال : المغاثير أيضا بالثاء ، ويقال للنحل : جوارس ؛ أي أواكل ، وأصل الجرس : الصوت الخفي ، يقال : سمعت جرس الطير أي صوت مناقيرها على شيء تأكله ، وما سمعت لفلان جرسا ؛ أي حسًا ولا صوتا.[تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم١ــ ٢٦٢].

(٢) [أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الطلاق باب { لم تحرم ما أحل الله لك } . وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الطلاق ، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق].

(٣) [ينظر : صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الطلاق رقم: ٤٦٢٨ وكذلك : كتاب الطلاق ، باب { لم تحرم ما أحل الله لك }.وصحيح مسلم كتاب الطلاق باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق].

(٤) [تفسير القرآن العظيم / لابن كثير ٨ ــ ١٨٩ دار الشعب].

وقد ذكر الألوسي أنَّ الخفاجي نقل عن النووي في شرح مسلم : الصواب أنَّ شرب العسل كان عند زينب ــ رضي الله عنها ــ [1] .

ومن الروايات في سبب نزول هذه الآية الكريمة أيضاً ما ذكره ابن الجوزي وهي " أنَّ حفصةَ ذهبت إلى بيت أبيها تتحدث عنده ، فأرسل النبيُّ – ﷺ – إلى جاريته ، فظلت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة، فرجعت حفصة ، فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرةً شديدة ، فلما دخلت حفصة قالت : قد رأيت من كان عندك ، والله لقد سؤتني فقال النبيُّ – ﷺ – والله لأرضينك وإني مُسِرٌّ إليك سراً فاحفظيه ، قالت : وما هو ؟ قال :" إني أشهدك أنَّ سريتي هذه عليَّ حرام رضىً لك " وكانت عائشة وحفصة متظاهرتين على نساء النبي – ﷺ – فانطلقت حفصةُ إلى عائشة فقالت لها ، أبشري : إنَّ النبيَّ – ﷺ – قد حرّم عليه فتاته " فنزلت هذه الآية "[2]

وقد ذكر القرطبي رواية ثالثة شاركه في روايتها ابنُ كثير وعبارة القرطبي " أنه أراد بذلك المرأة التي وهبت نفسها للنبي – ﷺ – فلم يقبلها لأجل أزواجه ، قاله ابن عباس وعكرمة ، والمرأة أم شريك "[3] . وقد علق ابن كثير على هذه الرواية قائلاً:"وهذا قول غريب ، والصحيح أنه كان في تحريمه العسل "هـ[4] .

أمَّا القرطبي فقد علَّقَ على الروايات الثلاث تعليقاً مشفوعاً بتعليل معقول فيقول :" أصح هذه الروايات أولها – وهي شربه العسل عند زينب

---

(١) [روح المعاني ١٥ ــ ٢١٨].

(٢) [رواه الطبري عن محمد بن سعد صاحب الطبقات من رواية عطية العوفي عن ابن عباس ــ ﷺ ــ[جامع البيان ٢٨ –١٠١ط – دار الحديث ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م].

(٣) [الجامع لأحكام القرآن ١٠ ــ ٦٦٥٧].

(٤) [تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) .٨ ــ ١٥٧ – ط – الحلبي].

والمتواطئتان حفصة مع عائشة – وأضعفها :... المرأة التي وهبت نفسها ، قال ابن العربي : وأما ضعفه في السند فلعدم عدالة رواته ، وأمَّا ضعفه في معناه فلأن ردَّ النبي – ﷺ – للموهوبة ليس تحريماً لها ؛ لأنَّ ما وهب له لم يحرم عليه ، إنما حقيقة التحريم بعد التحليل .

وأمَّا ما روى أنه حرّم مارية القبطية فهو أمثل في السند وأقرب إلى المعنى ، لكنه لم يرد في الصحيح . وروى مرسلا "هـ"[1]

وبنفس العبارة قال ابنُ العربي في رواية مارية ، وعن رواية العسل قال: " وإنَّما الصحيح أنه كان في العسل ، وأنه شربه عند زينب ، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه ، وجرى ما جرى ، فحلف ألا يشربه ، وأسرّ ذلك ونزلت الآيةُ في الجميع "هـ"[2] .

وقد رجّح الخازن هذا أيضاً على أنه ترجيح الكثرة من العلماء حتى لكأنه الإجماع ؛ إذ قال :" قال العلماء في سبب نزول الآية أنها في قصة العسل لا في قصة مارية ؛ المروية في غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح ، قال النسائي : إسناد حديث عائشة في العسل جيد صحيح غاية "هـ"[3]

فالصحيح إذاً في أمر ما حرَّمه رسول الله – ﷺ – على نفسه أنَّه العسل لا مارية؛ ذلك لأنَّ قصة مارية مروية في غير الصحيحين، ولم تأت من طريق صحيح – كما ذكره الإمام النووي – رحمه الله –"[4] . [5]

---

(١) [الجامع لأحكام القرآن ١٠ ــ ٦٦٥٨].

(٢) [أحكام القرآن ٤ ــ ١٨٤٦ لابن العربي . ط / دار الفكر العربي / بدون].

(٣) [تفسير الخازن ٤ – ٢٨٤ ط / الحلبي].

(٤) [ينظر شرح الإمام النووي لصحيح مسلم ٥ ــ ٢٨ ط / دار إحياء التراث العربي بيروت / الثانية ١٣٩٢هـ].

(٥) [أكثرت من الاستشهاد على هذا القول؛ أي أنَّ ما حرَّمه رسول الله – ﷺ – على نفسه هو العسل؛ لأنَّ هناك من رجّح أنَّ الذي حرَّمه رسول الله – ﷺ – على نفسه هو=

وبعد أن تعرَّفنا إلى سبب نزول الآية الكريمة ؛ أي قوله ـ تعالى ـ: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...)

نعود إلى هذا النداء مرَّة أخرى لنؤكد على أنَّ مضمونه مجرد عتاب من الله ـ تعالى ـ لرسوله - ﷺ - في شأن ما حرَّمه على نفسه دون وجود ما يدعو إلى ذلك ..

" وكونه ـ ﷺ ـ فعل ذلك مرضاة لأزواجه ودفعاً لغيرتهن مما لا يعد عِلَّةً تدعو إلى التحريم .. فإنَّ غيرتهن مما لا تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن .

فجملة " تبتغي مرضاة أزواجك " عذر للنبي - ﷺ - فيما فعله من أنَّه أراد به خيراً وهو جلب رضا الأزواج ؛ لأنه أعون على معاشرته مع الإشعار بأنَّ مثل هذه المراضاة لا يُعبأ بها ؛ لأنَّ الغيرة نشأت عن مجرد معاكسة بعضهن بعضاً، وذلك مما يختل به حسن المعاشرة بينهن ، فأنبأه الله أنَّ هذا الاجتهاد معارض بأنَّ تحريم ما أحَلّ الله له يفضي إلى قطع كثير من أسباب شكر الله عند تناول نعمه ، وأن ذلك ينبغي إبطاله في سيرة الأمة .

وذيل بجملة " والله غفور رحيم " استئناساً للنبي - ﷺ - من وحشة هذا الملام ؛ أي والله غفور رحيم لك مثل قوله ﴿ عَفَا اللهُ عنكَ لِمَ أذنتَ لهُمْ ﴾ الآية[1].. [2].

=مارية القبطية ومن هؤلاء ابن عطية في [المحرر الوجيز ٥ ـ ٣٣١] والجصاص في [أحكام القرآن٣ـ٦٢١ط/دار الكتب العلمية- بيروت] وهناك من توقف في أمر ما حرَّمه رسول الله - ﷺ -على نفسه وهذا ما ذهب إليه الطبري وابن الجوزي . ينظر:جامع البيان٢٨ـ ١٠٢ وزاد المسير في علم التفسير ٨ ـ ٣٠٣ - ط - دار الفكر - بيروت . وعلى كلٍّ فهذا أو ذاك لا يقوى أمام رواية الصحيحين التي نصَّت على أن ما حرَّمه رسول الله - ﷺ - على نفسه هو العسل .

(١) [سورة التوبة آية رقم : ٤٣].

(٢) [ينظر : التحرير والتنوير ١٣ / ٣٤٦ ، ٣٤٧].

وإذا كان هذا النداء لا يعدو أنْ يكون مجرد عتابٍ لطيفٍ من الله ـ تعالى ـ لرسوله – ﷺ – مع ما يوحي به النداء من وصف النبوة بالتكريم والتعظيم فإنَّ الإمامَ الزمخشري يغالي في أمر هذا النداء الذي افتتحت به السورة الكريمة إلى معنى أبعد من العتاب وأقسى ، معتبراً أنَّ التحريم الذي صدر منه – ﷺ – يعد زلَّة منه – ﷺ – ، وسأورد للقارئ الكريم عبارات الزمخشري في هذا الشأن مع التعقيب بالرَّد عليها نظراً لجلال مقام النبوة فضلاً عن عصمة الأنبياء التي لا يتفق معها كلام الزمخشري إلا إذا كان يقصد بالزلة خلاف الأولى .

ورد في الكشاف ما يلي :" وكان هذا زلَّة منه ؛ لأنه ليس لأحد أن يحرِّم ما أحلَّ الله ؛ لأنَّ الله – ﷻ – إنَّما أحلَّ ما أحلَّ لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله ، فإذا حرَّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة " والله غفور رحيم" قد غفر لك ما زللت فيه" رحيم" قد رحمك فلم يؤاخذك به "هـ[1] .

هذا هو كلام الإمام الزمخشري في أمْرِ هذا النداء ..

وأتساءل كما يتساءل غيري : هل النبيُّ – ﷺ – قد غفل عن هذا المعني الذي لاحظه الإمام الزمخشري من أنَّ الله ـ تعالى ـ أحلَّ ما أحلَّ لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله ، وأن تحريم ذلك عندئذ يعد قلباً للمصلحة إلى مفسدة ..؟

لا شك أنَّ النبي – ﷺ – لا يغيب عنه معرفة ذلك .

وقد قام بالرَّد على الإمام الزمخشري فيما ذهب إليه صاحب " الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال " فقال :" .. ما أطلقه الزمخشري في حق النبيِّ – ﷺ – تقوّل وافتراء ، والنبيُّ منه براء ، وذلك أنَّ تحريم ما

---

(١) [الكشاف ٦ ـ ١٥٥].

أحلَّه الله على وجهين : الأول اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرَّمهُ الله – ﷻ – وكلاهما محظور ولا يصدر من المتسمين بسمة الإيمان وإن صدر سلب المؤمن حكم الإيمان واسمه .

الثاني : الامتناع مما أحله – ﷻ – وحمل التحريم بمجرده صحيح لقوله (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِن قَبْلُ) [1] أي منعنا لا غير فقد يكون مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله ، وهذا مباح صِرف وحلال محض ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال فإذا علمت بون ما بين القسمين ، فعلى القسم الثاني تحمل الآية ، والتفسير الصحيح يعضده فإنَّ النبي – ﷺ – حلف بالله لا أقرب مارية [2] ولما نزلت الآية كفَّر عن يمينه ويدل عليه (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ [3]). وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح ، وإنما قيل له :" لم تحرم ما أحل الله لك " رفقاً به وشفقة عليه وتنويهاً لقدره ولمنصبه – ﷺ – أن يراعي مرضات أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله ــ تعالى ــ بنبيه ــ ﷺ ــ ... والزمخشري لم يحمل التحريم على هذا الوجه ؛ لأنه جعله زلة فيلزمه أن يحمله على المحمل الأول ، ومعاذ الله وحاش الله ، وإن آحاد المؤمنين يحاشى عن أن يعتقد تحريم ما أحلَّ الله له ، فكيف لا يربأ بمنصب النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ عما يرتفع عنه منصب الأمة "هـ[4] .

---

(١) [سورة القصص آية رقم : ١٢].

(٢) [سبق القول بأنَّ الصواب فيما حرمه رسول الله ــ ﷺ ــ على نفسه هو العسل .

(٣) [سورة التحريم آية رقم : ٢ .

(٤) [الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لـ/ابن المنير.على هامش تفسير الكشاف للإمام الزمخشري٤ــ١٢٥ط/دار الفكر.

هذا ما قاله صاحب الانتصاف في الرَّد على ما سبق من كلام الإمام الزمخشري .. ويكفينا تأكيداً على أنَّ هذا النداء لا يعدو أن يكون عتاباً لطيفاً لرسول الله – ﷺ – رحمة منه ــ تعالى ــ بنبيه ورسوله وألا يحمّل نفسه ما لم يكلف به ما ورد في الآيات بعد ذلك من ذكر تلك المظاهرة ، وإعلان الله عنها، وكيف توعَّدَ اللهُ من يتظاهر على رسول الله – ﷺ – ولو كان أقرب الناس إليه .. ذلك أنَّ أمثال هذا التظاهر تمنع أو على الأقل تعوق الرسول – ﷺ – من أداء مهمة الرسالة ، وتبليغ الوحي الإلهي إلى الناس .

ولو كان ثمة مؤاخذة لرسول الله – ﷺ – على هذا التحريم لكان الكلام كلّه قد جرى على هذا السياق من اللوم وعدم العود .. وأنه لا تحريم ولا تحليل إلا بأمر منه ــ تعالى ــ ..

فذاك أشد وأخطر من ذكر أمر هذا التظاهر عليه – ﷺ –.

ولم يبق في أمر هذا النداء في أوّلِ السورة الكريمة إلا أن نعرف وجه ندائه – ﷺ – بوصف النبوة دون وصف الرسالة ..

وفي هذا يقول الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله – " النداء بوصف النبوة يكون موجهاً إلى جزئيات من تكاليف الرسالة ، وبخاصة ما يتصل بجهة التنفيذ، أمَّا النداء بوصف الرسالة فلم يكن إلا في تحديد مهمة الرّسالة العظمى وما يتصل بها من تقوية القلب على أدائها،(بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ [1]) (لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ [2]) ولعلَّ ذلك يرجع إلى طبيعة لفظي (نبي) و (رسول) في اللغة العربية ، واقتضاء أولهما معنى العرفان والعلم واقتضاء الثاني مجرد التبليغ "هـ[3]

---

(١) [سورة المائدة آية رقم : ٦٧].

(٢) [سورة المائدة آية رقم : ١٧٦].

(٣) [تفسير القرآن الكريم ص ٩٦].

قلت : وعلى أساس هذا الاختلاف اللغوي بين النبيّ والرسول نرى القرآن يغاير بينهما حسب ما يقتضيه السياق ومن ذلك أن يذكر النبيين والأنبياء في موضع لا يصلح فيه ذكر الرسل ؛

وبيان ذلك أنَّ الله – سبحانه وتعالى – قد تولَّى حفظ رسله من أن تمتد إليهم أيد آثمة ، وذلك حتى يتمكن كلُّ رسولٍ من البلاغ عن ربِّهِ فهذا ما توجبه الحكمة في الإرسال تصديقاً لقوله ــ تعالى ــ:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ [1] ﴾

يقول صاحب التحرير والتنوير في تفسير قوله ــ تعالى ــ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ [2] ﴾ :" وإنَّما قال :(النبيين) لأنَّ (الرسل) لا تسلط عليهم أعداؤهم؛ لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ .. ومن ثمَّ كان ادعاء النصارى أنَّ عيسى قتله اليهود ادعاء منافياً لحكمة الإرسال ، ولكنَّ اللهَ أنهى مدةَ رسالته بحصول المقصد ممّا أرسل إليه "هـ[3] .

وما ورد من الآيات ينصر ذلك المعنى ويؤيده ؛ إذ أُوقِعَ لفظ القتل على(النبيين) دون(الرسل) من مثل قوله ــ تعالى ــ(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[4] . [5]

---

(١) [سورة المائدة آية رقم : ٦٧].

(٢) [سورة البقرة آية رقم : ٦١].

(٣) [التحرير والتنوير ١ – ٥٢٩].

(٤) [سورة البقرة آية رقم : ٩١].

(٥) [ومن مثل ذلك آية رقم : ٢١ ، ١١٢ ، ١٨١ من سورة آل عمران وآية رقم ١٥٥ من سورة النساء .

وعلى العكس من ذلك نرى أنَّ القرآن في جانب (الرسل) يعبِّر بما يفهم منه الحفظ والنصرة في مثل قوله ـ تعالى ـ:﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[1] .

وفي ندائه – ﷺ – بوصف الرسالة في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ..﴾ مِمَّا يعبِّر صراحة بحفظ الله لخير المرسلين محمد – ﷺ – من الناس عامة ويدخل فيهم اليهود دخولاً أولياً ـ كما ينبئ عنه سياق الآية حيث جاءت في سياق الحديث عن أهل الكتاب فقبلها يقول ـ تعالى ـ:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] وبعدها يقول ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ..﴾ الآية [3]

ونداؤه – ﷺ – بوصف الرسالة في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ [4]﴾ الآية . جاء كذلك في سياق الحديث عن أهل الكتاب .. ففي الآية ذاتها يقول ـ تعالى ـ﴿ .. وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ... ﴾ الآية .

وكذلك الآيات التي بعدها في سياق الحديث عن أهل الكتاب .

---

(١) [سورة غافر آية رقم : ٥١].

(٢) [سورة المائدة آية رقم : ٦٥ ، ٦٦].

(٣) [سورة المائدة آية رقم : ٦٨].

(٤) [سورة المائدة آية رقم : ٤١].

فجاء النداء بوصف الرسالة هنا وهناك ليطمئن رسول الله – ﷺ – إلى أنَّهم لن ينالوا منه كما نالوا من أنبيائهم من قبل ، وكذلك ليعلم هؤلاء أن ليس لهم إلى رسول الله سبيل .

فحيث كان الأمرُ خاصاً بالتبليغ وما يلزم منه من حفظ المبلِّغ وعصمته أوثر النداء بوصف الرسالة .

وإن كان الأمر خاصاً بجزئيات من تكاليف الرسالة وما يتصل بذلك من تنفيذ أوثر النداء بوصف النبوة ، والله أعلم .

النداء الثاني من السورة الكريمة:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1]

جاء هذا النداء الكريم للمؤمنين عقب النداء للنبيِّ – ﷺ – وبيان ما تضمنه من أمور تشريعية وأخلاقية ..

وهذا يدلُّ على العناية بطائفة المؤمنين مثل العناية بالأنبياء والمرسلين كما بيَّن لنا ذلك رسولُ الله – ﷺ – في قوله :" إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ "[2] كما يدلُّ هذا النداء على أنَّ هؤلاء المؤمنين أقدر على تحمل مسئولية ما يتضمنه النداء من أمرٍ أو نهْيٍ ..

يقول الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله –:" ناداهم بهذا الوصف الذي تركَّزَ في نفوسهم ؛ تنبيهاً إلى أنَّ الإيمان من شأنه أنْ يحملهم على الاستجابة لما طلب منهم وكلفوا به ، وتنبيهاً إلى أنَّهم بحكم اشتراكهم في ذلك الإيمان

---

(١) [سورة التحريم آية رقم : ٦].

(٢) [الحديث أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا .

مسئولون عن هذه التكاليف التي هي من أحكام الإيمان،يسأل الشخص المؤمن عن نفسه،ويسأل عن أخيه،وهذا هو الأصل فيما يقرره الإسلام من تضامن أهله،ومسئولية بعضهم عن بعض في تنفيذ الأحكام والعمل بمقتضاها "هـ"[1].

فالنداء عليهم بوصف المؤمنين لأنَّهم مظنة الاستجابة ؛ إذ إنَّ المنادِي لا ينادي إلا من عرف منه الاستجابة .. لذلك بلغت نداءات المؤمنين تسعة وثمانين نداء. تدور في مجملها حول الأخلاق والأحكام.

ففي الأخلاق مثلاً قوله ــ تعالى ــ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ..الآية﴾ [2] .

وقوله ــ تعالى ــ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ... ﴾ الآية [3].

وقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ ... ﴾ الآية [4].

وقوله ــ تعالى ــ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِسِ فَافْسَحُوا ..﴾ الآية[5].

ومن ندائهم في الأحكام قوله ــ تعالى ــ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[6].

---

(١) [تفسير القرآن الكريم ص ٩٩].

(٢) [سورة الأنفال آية رقم : ٢٧].

(٣) [سورة الحجرات آية رقم :١١].

(٤) [سورة الحجرات آية رقم : ١٢].

(٥) [سورة المجادلة آية رقم : ١١].

(٦) [سورة البقرة آية رقم : ١٨٣].

وقوله ــ تعالى ــ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ... ﴾ الآية [1] إلى آخر تلك النماذج التي نرى من خلالها استنهاض المؤمنين بالنداء بهذا الوصف المحبب للنفوس الحافز للعقول إلى مكارم الأخلاق في الأفراد والجماعات ؛ حثًّا على التحلي بها ، وسمواً بهم إلى أعلى مراتب الإنسانية، وكذلك ناداهم في الأحكام حثًّا على امتثالها والعمل بمقتضاها .

وإذا كانت نداءات المؤمنين قد بلغت العددَ الكثير بوصف الإيمان فإننا نجد في المقابل نداءاً واحداً للمنكرين الجاحدين (بوصف الكفر) في موضع واحد لا يملكون فيه إلا الإجابة والخضوع ؛ وذلك عندما يناديهم رب العزة ــ تبارك وتعالى ــ في الآخرة حيث الجزاء والحساب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا اليَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وإنَّما لم ينادهم في الدنيا بهذا الوصف لئلا يلزم منه عبث إذ كيف ينادي على من لا يؤمن به ولا يستجيب له ؟

ونعود إلى النداء الكريم في قوله ــ تعالى ــ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾[3]

فنقول : إنَّ هذه الآية وما تضمنها من نداءٍ مناسبٌ لما سبق من آيات؛ وذلك أنَّ الله " لمَّا وعظ أزواج النبي – ﷺ – خاصة أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين وأهليهم "[4]

---

(١) [سورة المائدة آية رقم : ٢].

(٢) [سورة التحريم آية رقم : ٧].

(٣) [سورة التحريم آية رقم : ٦].

(٤) [البحر المحيط ٨ ــ ٢٨٧].

يقول الطاهر بن عاشور- رحمه الله -:" كانت موعظةُ نساء النبي- ﷺ - مناسبة لتنبيه المؤمنين لعدم الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم، وأن لا يصدّهم استبقاء الودّ بينهم عن إسداء النصح لهم، وإن كان في ذلك بعض الأذى .

وهذا نداء ثان موجه إلى المؤمنين بعد استيفاء المقصود من النداء الأول نداءِ النبي - ﷺ - بقوله ــ تعالى ــ:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ)

وجه الخطاب إلى المؤمنين ليأتنسوا بالنبيِّ - ﷺ - في موعظة أهليهم "هـ[1].

إنَّ هذا النداء مع ما تضمنه من التنبيه والتحذير فإنَّه فوق ذلك متضمن للطف الله ــ تعالى ــ ورحمته بعباده المؤمنين ؛ إذ يحذرهم من هذه النار التي وقودها الناس والحجارة ، ولا شك أنَّ من يخبر إنساناً بخطرٍ ما يعد رحيماً به مشفقاً عليه .

ومجمل النداء هنا – كما هو بيِّن – يدور حول تبعة المؤمن ومسئوليته تجاه أهله بغية النجاة من نار وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ ..

يقول الأستاذ سيد قطب :" إنَّ تبعة المؤمن في نفسه وأهله تبعة ثقيلة رهيبة ، فالنَّار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك ، إنَّها نار فظيعة مستعرة :" وقودها الناس والحجارة " ... "هـ[2].

ولا يخفى أنَّ وقاية الإنسان نفسه وأهله من هذه النار يكون باتباع ما أمر به الله ورسوله ، واجتناب ما نهى عنه الله ، وأن يكون هواه تبعاً لما جاء

---

(١) [التحرير والتنوير ١٣ ــ ٣٦٥].

(٢) [في ظلال القرآن ٦ – ٣٦١٨].

به رسول الله – ﷺ – وأن يكون له قبل ذلك معرفة بأوامر الله ونواهيه ومقاصد الشرع الحكيم .. وأن يعلم ذلك أهله ويؤدبهم على أساس منه ويأخذهم بذلك كما يأخذ نفسه ، ويأطرهم على الحق أطراً [1] ويلزمهم به إلزاماً .. فقد روى الطبري بسنده عن قتادة قال : يقيهم بأن يأمرهم بطاعة الله وينهاهم عن معصيته وأن يقوم عليهم بأمر الله يأمرهم به ، ويساعدهم عليه ، فإذا رأيت لله معصيةً ردعتهم عنها وزجرتهم عنها "[2]

قال الألوسي :" استدلَّ بها على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لأهله "هـ[3].

ولقد تتابعت الوصايا من رسول الله – ﷺ – في أمر هذه الوقاية والتأكيد عليها ، ومن ذلك قوله – ﷺ –:" أيقظوا صواحبات الحجر"[4]. وكان إذا أوتر يقول:" قومي فأوتري يا عائشة "[5].

وما ورد في أمر هذه الوقاية وكيفية القيام بها تجاه النفس والأهل كثير يؤخذ من مظانه ..

---

(١) [الأطر : عطف الشيء تقبض على أحد طرفيه فتعوجه .. وأطره فتأطر : عطفه فانعطف ، كالعود تراه مستديراً إذا جمعت بين طرفيه . وفي الحديث عن النبيِّ – ﷺ – أنه ذكر المظالم التي وقعت فيها بنو إسرائيل والمعاصي فقال :" لا والذي نفسي بيده حتى تأخذوا على يدي الظالم وتأطروه على الحق أطرا ".. قوله تأطروه على الحق (تعطفوه عليه).[لسان العرب ٤ ــ ٢٤ دار صادر بيروت] والحديث أخرجه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن باب ٦ ومن سورة المائدة . رقم ٣٠٤٧ قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب].

(٢) [جامع البيان ٢٨ – ١٠٧].

(٣) [روح المعاني ١٥ ــ ٢٣٢].

(٤) [صحيح البخاري كتاب العلم باب العلم والعظة بالليل].

(٥) [صحيح مسلم كتاب الصلاة باب صلاة الليل].

وقبل الانتقال إلى النِّداء التالي في السورة الكريمة فإنَّ هناك سؤالاً يطرح نفسه، وهو إذا كانت النار كما قال الله أعدت للكافرين في الآية الكريمة: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[1] ، فلماذا أمر المؤمنون باتقائها مع أنها خصصت للكافرين ؟.

يجيب الإمام الرازي على ذلك فيقول :" الفُسَّاق وإنْ كانت دركاتهم فوق دركات الكفار، فإنَّهم مع الكفار في دار واحدة ، فقيل للذين آمنوا :(قُوا أَنْفُسَكُمْ ..) باجتناب الفسق ومجاراة الذين أعدت لهم هذه النار ، ولا يبعد أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد "هـ[2].

وقريب من ذلك يقول الإمام أبو السعود – رحمه الله –:" وأمرُ المؤمنين باتّقاء هذه النار المعدة للكافر كما نصَّ عليه في سورة البقرة للمبالغة في التحذير "هـ[3]

وعبارة الإمام الصَّاوي في هذا المقام :" وإنَّما خوطب بذلك المؤمنون تخويفاً لهم عند الارتداد ، وللمنافقين الذين هم مؤمنون ظاهراً "هـ[4] .

قلت : ومن هنا تظهر حكمة النداء بـ " يا " على القول بأنها لمتوسط البعد [5] ذلك أنَّ الله ــ تعالى ــ لم ينادهم بما يدل على البعيد لأنَّهم قريبون من

---

(١) [سورة البقرة آية رقم : ٢٤].

(٢) [مفاتيح الغيب ١٥ ــ ٥٩٤ وينظر : الكشاف ٤ – ١٢٩].

(٣) [إرشاد العقل السليم ٨ ــ ٢٦٨].

(٤) [حاشية الصاوي (أحمد بن محمد الخلوتي ، الشهير بالصاوي) على الجلالين ٤ – ص ١٦٨ ط / الحلبي].

(٥) [المشهور في حرف النداء" يا "أنَّه وضع لنداء البعيد ــ كما سبق ذكره ــ وذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ هذا الحرف وضع لنداء البعيد المتوسط البعد خاصة – وحجته في ذلك أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى غالباً .=

رب العالمين ــ سبحانه وتعالى ــ بالطاعة والإنابة ، ولم ينادهم بما يدلُّ على هذا القرب ليبقوا على حذر من رب العالمين ــ سبحانه وتعالى ــ وعدم الأمن من مكره ــ تعالى ــ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ ﴾ (١)

فليحذر هؤلاء المؤمنون أن يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من أهل الكفر والخسران الذين لم يستجيبوا له ــ تعالى ــ.. كما ينبئ عن ذلك أيضاً النداء التالي في السورة الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

وإلى القارئ الكريم الحديث عن هذا النداء ومغزاه .

النداء الثالث :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

إنَّ أول ما يلفت نظرنا إلى هذا النداء :

أوَّلاً : أنَّه لم يرد في كتاب الله ــ تعالى ــ نداء مباشر من الله ــ تعالى ــ (٣) على أهل الكفر بوصف الكفر إلا في هذا الموضع من سورة التحريم .

=وإذا كان الأمر كذلك فإنّ" يا " أقل مبنى من" أيا "و" هيا " الموضوعان لنداء البعيد ففيهما إذاً زيادة في النداء عن" يا" ، قال الصبّان في حاشيته على الأشموني (٣ – ١٩٨): " زيادة أحرفهما عن (يا) فيهما دلالة على زيادة بُعد مناداهما عن منادى (يا)"هـ.

(١) [سورة الأعراف آية رقم : ٩٩].

(٢) [سورة التحريم آية رقم : ٧].

(٣) [الاحتراز بكلمة (مباشر) ليخرج(غير المباشر)من مثل قوله تعالى (قل يا أيها الكافرون)(سورة الكافرون١)

ثانيـــاً : أنَّ النداء هنا على أهل الكفر – كما هو ملاحظ – ليس في دار التكليف – أي دار الدنيا – بل في الدار الآخرة أي دار الثواب والعقاب .

وينتج عن هذا الأمر وسابقه أن نقول :

إنَّ نداء الله ــ تعالى ــ على أهل الكفر بهذا الوصف لم يكن في الدنيا لئلا يلزم منه عبث إذ كيف ينادي ربُّ العزة بأمر تكليفي علـــى مـــن ينكـــره ويجحده ..؟!

كما أنَّ نداءهم في الدار الآخرة ــ وهي ليست دار تكليف ــ يدلنا على أنَّ النداء هنا ليس لإثبات أمرٍ أو نهيٍ يجازى عليه الإنسان بل المراد من النداء هنا القهر والتيئيس والتحقير .. يدلُّ على ذلك أنَّ اعتذارهم أو عدمه لا اعتـــداد به في الحالتين ؛ إذ لن يحصل من هذا أو ذاك قبول منهم .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما جدوى هذا النداء في هـــذا الموضـــع مـــن السورة الكريمة ؟

يذكر العلماء أنَّ مجيء هذا النداء في موضعه من الـــسورة الكريمـــة ليؤكد من تحذير المؤمنين من الموبقات في النار ، وذلك على منـــوال القـــول الدارج " الكلام لك واسمعي يا جارة " ...

يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله:" وذكر هذه المقالة هنا استطراد يُفيد التنفير من جهنم بأنها دار أهل الكفر كما قال ــ تعالـــــى ــ:﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[1] ، وإلاَّ فإنَّ سياق الآيـــة تحـــذير للمؤمنين من الموبقات في النار "هـــ[2] .

---

(١) [سورة البقرة آية رقم : ٢٤].

(٢) [التحرير والتنوير ١٣ – ٣٦٦ ، ٣٦٧] .

فالآية بهذا الترتيب " تهديدٌ ضمني للمؤمنين وإشعار بأنَّ معصية الله ورسوله ربما تؤدي إلي الكفر "[1]

وحين ذاك لا ينفع الندم ولات ساعة مندم .. فلا تقبل معذرة .. ولا تقال عثرة .. ولا ينفع ندم ولا توبة .

وإذا كان هذا النداء على الكافرين حاصلاً في الآخرة ، وأُتي به في وسط النداء للمؤمنين في دار الدنيا ــ لانتفاع المؤمنين به دون غيرهم ــ ، فإنَّ ذكره في كتاب الله ــ تعالى ــ وكونه كلاماً يتلى على أسماع الخلق فيه ما فيه من قطع الأعذار على الكافرين ، والإسراع في تدارك الفرصة قبل فوات الأوان ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيَّ عن بينة .

وإذا كانت الآية الكريمة لم تبين ما نوع هذا الاعتذار الذي نهي عنه هؤلاء الكافرون في الدار الآخرة، فلعلَّ ذلك لتصوير هول الموقف وشدته، وأنَّ اعتذارهم إذ لم يعتد به فلا ضرورة لذكر نوعه ..

ومن الممكن الاستدلال على نوع هذا الاعتذار من آيات أخرى كما في قوله ــ تعالى ــ ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [2]

---

(١) [الميزان في تفسير القرآن الشيخ/محمد حسين الطباطبائي١٩ــ٣٣٥ بيروت –الثانية – ١٣٩١هـ – ١٩٧٢مـ].

(٢) [سورة الأعراف آية رقم: ٣٨].

وقوله ــ تعالى ــ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

وقوله ــ تعالى ــ حين يصور موقف الكفار وهم واقفون على النار في مشهد يثير الفزع ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢)

وموقفهم وهم بين أطباقها يعذبون ويصرخون فيها يقولون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (٣) وأخرى يقولون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (٤)

بل يبلغ بهم سوء العذاب أن يكذبوا على ربهم يظنون أن الكذب ينفعهم بل ويقسمون بالله على ما يكذبون ويعتذرون به فيقولون ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٥)

ولكن كل ذلك لا يفيد ولا يبدئ ولا يعيد بل يرمي عليهم بكل قسوة يستحقونها .. هذا وعيدنا غير مكذوب :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٦) فما ظلمناكم ولكنكم أنتم الظالمون .

---

(١) [سورة سبأ آية رقم : ٣١].

(٢) [سورة الأنعام آية رقم : ٢٧].

(٣) [سورة فاطر آية رقم : ٣٧].

(٤) [سورة المؤمنون آية رقم : ١٠٧].

(٥) [سورة الأنعام آية رقم : ٢٣].

(٦) [سورة التحريم آية رقم : ٧].

هذا هو حال الكافرين يوم القيامة . فالنار مثواهم وليس لهم إلا النار .

أمَّا المؤمنون الذين يسمعون هذا النداء وما فيه من شدة وإرعاد وزجر ووعيد .. فإنهم يتساءلون عن كيفية النجاة من هذا المصير .. فجاء النداء التالي ليوضح لهم خير الطرق إلى تلك النجاة وأفضل السبل المؤدية إلى وقاية النفس من هذه النار، فقال ــ تعالى ــ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

وهذا هو النداء الرابع في السورة الكريمة نرى فيه " إعادة خطاب المؤمنين وإعادة ندائهم ، والفرق بين النداءين أي النداء الأول للمؤمنين في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. ﴾ الآية، والنداء الثاني لهم أي قوله ــ تعالى ــ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ الآية ، أنَّ الأول نداء للواعظين لأنفسهم وأهليهم بالنصيحة والإرشاد إلى ما فيه خير ، وأمَّا الثاني فهو نداء للموعوظين، أمر المؤمنون فيه بالتوبة من الذنوب إذا تلبسوا بها ؛ لأنَّ ذلك من إصلاح أنفسهم بعد أنْ أمروا بأن يجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يزج بهم في عذاب النار ؛ لأنَّ اتّقاء النار يتحقق باجتناب ما يرمي بهم فيها ، وقد يذهلون عما فرط من سيئاتهم فهدوا إلى سبيل التوبة التي يمحون بها ما فرط من سيئاتهم .."(٢)

---

(١) [سورة التحريم آية رقم : ٨].

(٢) [التحرير والتنوير ١٣ – ٣٦٧].

كما أنَّ مجيء هذا النداء على المؤمنين بالتوبة مباشرة بعد نداء الكافرين ، وذكر مصيرهم مما يدلُّ على رحمة الله ــ تعالى ــ وشفقته بجماعة المؤمنين كما يشير إلى ذلك قوله ــ تعالى ــ ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ (١)

وفيه أيضاً اهتمام خاص بتلك الطائفة المؤمنة وذلك ببيان ما يصلح حالهم في الدنيا بالتوبة والإنابة وفي الآخرة بالجنة ودار الكرامة ..

وإذا كان هذا النداء للمؤمنين بوصف الإيمان هو النداء الثاني لهم في سورة التحريم فإنه في نفس الوقت يعد آخر نداء من التسعة والثمانين نداء الواردة في نداء طائفة المؤمنين بوصف الإيمان .

واختيار التوبة في هذا النداء لتكون آخر أمْرٍ من هذه النداءات مما يدلُّ على أهمية أمر التوبة ، وعدم التواني في تنفيذها ، إذْ قد عُهد أنَّ ما يوصى به في آخر الكلام يكون محل الاهتمام الشديد .

وقد أفاض العلماء في أمر هذه التوبة النصوح الواردة في هذا النداء من حيث معناها وشروطها ..

فهي في اللغة من " تاب : عاد إلى الله ورجع وأناب وتاب الله عليه أي عاد عليه بالمغفرة كقوله ــ تعالى ــ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢)

أي عودوا إلى طاعته وأنيبوا إليه ، والله هو التواب يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه " (٣)

---

(١) [سورة الأحزاب آية رقم : ٤٣].

(٢) [سورة النور آية رقم : ٣١]

(٣) [لسان العرب ١ ــ ٢٣٣ دار صادر بيروت].

وقال النووي :" المراد بالتوبة هنا : الرجوع عن الذنب " [١]

أمَّا معنى " النصوح " فهي من النصح . وهو كما يقول الراغب :" تحري فعل أو قول فيه صلاح لصاحبه ، قال تعالى ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [٢] ... وهي مأخوذة من قولهم : نصحت له الوُدَّ ؛ أي أخلصتُهُ . يقال : عسل ناصح أي خالص من الشمع ، أو من قولهم : نصحت الجلد : خطته ، والناصح الخياط ، والنِّصاح : الخيط أي أحكمته . فقوله : ﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ هو من أحد هذين المعنيين إمَّا الإخلاص وإمَّا الإحكام "[٣]

وقد ذكر الشيخ زادة في حاشيته معنىً آخر وهو الصدق قال :" وقيل النصح : الصدق من قولهم : نصحت الإبل الشرب تنصح نصوحاً أي صدقته ، وأنصحتها أنا أي : أرويتها ، ومنه التوبة النصوح أي الصادقة التي يقلع بها صاحبها عن المعصية قلباً وقالباً ، ويندم على ما صدر منه كمال الندم ، ونصح التوبة بمعنى : صدقها يستلزم كون صاحبها ناصحاً لنفسه خالصاً في إرادة الخير لها ..."[٤] .

ووصف التوبة بالنصوح إنَّما هو " على سبيل المجاز والمبالغة معاً كقولهم : زيد عدل . إذ النصح صفة التائب فهو ينصح نفسه بالتوبة فيأتي بها

---

(١) [شرح النووي على صحيح مسلم ١٧ ــ ٥٩ ط / دار إحياء التراث العربي بيروت / الثانية ١٣٩٢هـ].

(٢) [سورة الأعراف آية رقم : ٧٩].

(٣) [معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٥١٥ ، ٥١٦ . وينظر محاسن التأويل ١٦ ــ ٥٨٦٨ / الشيخ / محمد جمال الدين القاسمي . والجامع لأحكام القرآن ١٠ ــ ٦٦٧٦].

(٤) [حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي٤ــ٥١٤ ط/المكتبة الإسلامية بديار بكر-بتركيا].

على طريقها وهي خلوصها من جميع الشوائب ، كأنَّ النصح من التائب بلغ مبلغاً في القوة والخلوص بحيث يسري إلى صفته التي هي التوبة "[1] أو هي تنصح الناس ؛ أي يكون متعلق النصح هم الناس لا نفس التائب ، أي تدعوهم إلى مثلها لظهور أمرها على صاحبها ، واستعماله الجد والعزيمة في العمل بمقتضياتها "[2]

أمَّا عن شروط التوبة فإذا كانت في حق من حقوق الله ــ تعالى ــ فلها ثلاثة شروط وإذا كانت في حق من حقوق العباد فيضاف شرطٌ رابعٌ ، ذكر هذا ابن كثير وغيره على النحو التالي : قال العلماء:التوبة النصوح هو أنْ يقلع عن الذنب في الحاضر ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه "[3]

والأمر بالتوبة في الآية الكريمة على الفرض ، ذكر هذا القرطبي وغيره وعبارة الإمام القرطبي :" وهي فرض على الأعيان في كلِّ الأحوال والأزمان "[4]

تلك هي التوبة النصوح فإذا ما توافرت بمعناها وشروطها " فهي مرجوة إذن في أن يكفر الله بها السيئات ، وأن يدخل المؤمنين الجنات . في اليوم الذي يخزي فيه الكفار، كما هم في المشهد الذي سبق هذا النداء ، ولا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه .

---

(١) [حاشية القُونَوي (إسماعيل بن محمد بن مصطفى القُونَوي) على البيضاوي ١٩ــ ٢١٠ بيروت].

(٢) [ينظر : البحر المحيط ٨ ــ ٢٨٨ وإرشاد العقل السليم ٩ ــ ٢٦٩].

(٣) [تفسير ابن كثير ٤ ــ ٣٩٢ وينظر روح المعاني ١٥ ــ ٢٣٤].

(٤) [الجامع لأحكام القرآن ١٠ ــ ٦٦٧٦].

وإنَّه لإغراء مطمع ، وتكريم عظيم أن يضمَّ الله المؤمنين إلى النبي ـ ﷺ ـ فيجعلهم معه صفاً يتلقى الكرامة في يوم الخزي . ثم يجعل لهم نوراً " يسعى بين أيديهم وبأيمانهم " نوراً يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب ..

وهم في رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله :" يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "..

إنَّ الدعاء هنا نعمة يمنُّ بها الله عليهم تضاف إلى منن الله بالتكريم وبالنور ، فأين هذا من النار التي وقودها الناس والحجارة ؟

إنَّ هذا الثواب وكذلك العقاب ، كلاهما يصور تبعة المؤمن في وقاية نفسه وأهله من النار ، وإنالتهم هذا النعيم في جنات تجري من تحتها الأنهار ... "[1]

<u>النداء الخامس</u> في السورة الكريمة (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[2]

هذا هو النداء الخامس والأخير في هذه السورة الكريمة كما أنَّه في نفس الوقت آخر النداءات للنبيِّ ـ ﷺ ـ من المواضع الخمسة عشر الواردة في كتاب الله ـ تعالى ـ مع ملاحظة أنَّ هذا النداء قد جاء قبل ذلك في سورة التوبة آية رقم (٧٣) بنفس اللفظ .

وتلك اعتبارات ينبغي ملاحظتها عند دراسة هذا النِّداء .

وأبدأ ببيان وجه ارتباط هذا النداء بسابقه في هذه السورة الكريمة فأقول: من العجب أنَّ بعض [3] مفسري كتاب الله ـ تعالى ـ لا يرى ـ بعد

---

(١) [في ظلال القرآن ٦ ـ ٣٦١٨].

(٢) [سورة التحريم آية رقم : ٩].

(٣) [هو الأستاذ / محمد عزة دروزة في تفسيره المسمى (التفسير الحديث ط / دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٨١ هـ].

الاطلاع على ما تيسر له من كتب التفسير ــ مناسبة لهذه الآية الكريمة .. إذْ هي تبدو في نظره مستقلة عمَّا قبلها وما بعدها سياقاً وموضوعاً .. فهي استطراد بعد الآيات السابقة التي دعت إلى التوبة واجتناب عذاب الله ، وأشارت إلى مصير الكفار الأخروي ، وعدم جدوى اعتذارهم لتأمر النبي ــ ﷺ ــ بالوقوف من الذين كفروا بالله ورسالته - وهم الكافرون وشرارهم المنافقون- موقف الشدة والمجاهدة ، ومثل هذا الاستطراد غير نادر في نظم القرآن .. " (١)

قلت وهذا القول من الضعف بمكان .. فمناسبة هذه الآية لسابقها ولاحقها (٢) ظاهرة .. وما كان ينبغي التسرع في هذا الأمر فالمناسبة في كتاب الله ــ تعالى ــ تحتاج إلى إنعام النظر وإعمال العقل بقدر الطاقة، فإن لم نصل إليها فلا يعني ذلك عدم وجودها ..

ولنسمع إلى مشاهير العلماء الذين عقدوا المناسبة بين هذه الآية وسابقها فمنهم على سبيل المثال : الخطيب الشربيني والشيخ زادة والطاهر بن عاشور أمَّا الخطيب الشربيني فيقول :" لمَّا ذكر ما تقدم من لين النبي ــ ﷺ ــ لأضعف الناس وحسن أدبه وكرم عشرته لأنَّه مجبول على الشفقة على عباد الله والرحمة لهم ، أمره سبحانه بالغلظة والشدة على أعدائه يقول

---

(١) [التفسير الحديث ١٠ ــ ١٥٢].

(٢) [في مناسبة هذه الآية للاحقها يقول الطَّاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ:" أعقب جملة (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية . المقصود منها تهديدهم بعذاب السيف في الدنيا وإنذارهم بعذاب الآخرة ، وما قارن ذلك من مقابلة حالهم بحال المؤمنين بأنْ ضرب مثلين للفريقين بنظيرين في حاليهما لتزداد الموعظة وضوحاً ويزداد التنويه بالمؤمنين استنارة" هـ[التحريروالتنوير١٣ــ ٣٧٣].

تعالى ـ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ..) الآية . فالغلظة عليهم من اللين لله ـ تعالى ـ ، كما أنَّ اللِّين لأهل الله من خشية الله ـ تعالى ـ "هـ[1].

هذا ما ذكره الخطيب الشربيني في مناسبة هذه الآية لسابقها ، وما أجملها من مناسبة وإنْ كان قد جعل الربط بين أوَّل آية في السورة وهذه الآية رقم : ٩ ، لكن مع ذلك نجد الربط واضحاً ؛ إذ إن الآيتين تشتركان في وحدة النداء بـ" أيها النبي " والأُولى بيان للرحمة الرحيمة للنبي ـ ﷺ ـ ولينه العجيب لأضعف الناس وهن أزواجه الذي بلغ به أن حرم على نفسه ما تحبه وما يهواه طبعه ..

أمَّا النداء الثاني فإنَّه كان في المقابل لذلك، وهو الغلظة والشدة على أعداء الله الذين ليسوا أهلاً لهذه الرحمة ، وغير جديرين بهذه الرأفة ، فلا يصح أن توضع هذه الرحمة في غير موضعها وأن تمنح لغير أهلها ..

أمَّا الشيخ زادة فيقول في حاشيته:" ثم إنَّه ـ تعالى ـ لما عاتب أزواج النبي ـ ﷺ ـ ودعاهن إلى ما هو أصلح لهن ثم خوف المؤمنين بعذاب الآخرة ودعاهم إلى التوبة النصوح دعا النبي ـ ﷺ ـ إلى الجهاد ، ودعا كل طائفة إلى ما هو الأصلح "هـ[2]

هذا ما ذكره الشيخ زادة في مناسبة هذه الآية لسابقتها وأنها تدور مع ما سبقها من آيات حول الأصلح والمناسب لكل طائفة ..

ولعلَّ العبارة الدقيقة في مناسبة هذه الآية لسابقها هي ما ذكره الشيخ الطاهر ابن عاشور إذ يقول :" لمَّا أبلغ الكفار ما سيحل بهم في الآخرة تصريحاً بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ وتعريضاً بقوله ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِي

---

(١) [السراج المنير ٤ ـ ٣٣٤ . دار المعارف بيروت / الثانية بدون تاريخ].

(٢) [حاشية الشيخ زادة على البيضاوي ٤ ـ ٥١٥].

اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أمر رسوله ـ ﷺ ـ بمسمع منهم بأن يجاهدهم ويجاهد المستترين لكفرهم بظاهر الإيمان نفاقاً ، حتى إذا لم تؤثر فيهم الموعظة بعقاب الآخرة يخشون أن يسلط عليهم عذاب السيف في العاجلة فيقلعوا عن الكفر فيصلح نفوسهم .

وإنَّما أمر رسوله ـ ﷺ ـ بذلك لأنَّ الكفار تألبوا مع المنافقين بعد هجرة النبي ـ ﷺ ـ فاتخذوهم عيوناً لهم وأيدي يدسُّون بها الأذى للنبي ـ ﷺ ـ وللمؤمنين .

فهذا نداء ثان للنبي ـ ﷺ ـ يأمره بإقامة صلاح عموم الأمة بتطهيرها من الخبثاء بعد أن أمره بإفاقة من عليهما الغفلة عن شيء من واجب حسن المعاشرة مع الزوج "هـ[1]

قلت : والنداء هنا مع ما سبق يوقفنا على معانٍ شتى منها :

أولاً : أنه لا يمكن الوقوف أمام الجبهة الخارجية والمتمثلة في الكفار والمنافقين قبل إصلاح الجبهة الداخلية المتمثلة في النفس والأهل .

وعلى ذلك سارت النداءات في آيات تلك السورة الكريمة تبعاً لمشهور القول:الأهم فالمهم .

ثانياً : يبدو في بادئ النظر أنَّ النداء الثاني للنبيِّ ـ ﷺ ـ في السورة الكريمة ـ والذي فيه الأمر بمجاهدة الكفار والمنافقين ـ يعد أهم من النداء الأول من حيث المضمون .

لكن بإنعام النظر يتبين أنَّ تقديم النداء الأول وتأخير الثاني يعد من بلاغة كتاب رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك أنَّ الله ـ تعالى ـ يريد أن

---

(١) [التحرير والتنوير ١٣ ـ ٣٧١ ، ٣٧٢].

يهيئ لنبيه ـ ﷺ ـ طريق دعوته ، ولمَّا كان تظاهر هاتين المرأتين عليه ـ ﷺ ـ وهما من جملة أزواجه - يعد تعويقاً لذلك ، بدأ الله ـ تبارك وتعالى ـ بعلاج هذا الأمر أولاً معاتباً ومهدداً بل وصل أمر هذا التهديد لهما إلى درجة تجعل المرء يتساءل : أمن أجل شربة عسل تجتمع تلك الجنود على هاتين المرأتين بدأ من الملك الجبار ـ تبارك وتعالى ـ وانتهاءً بالملائكة ، علماً بأن هذا العدد الهائل من الجنود لم يأت في أي موضع آخر من القرآن الكريم ـ فلماذا هذا كله ؟

لأنَّ المقصود الأصلي هو قطع أمل المنافقين والكفار في خراب البيت المسلم ، فعندما يسمعون أولاً ذلك العتاب والتهديد والوعيد لأقرب الناس إلى رسول ـ ﷺ ـ فإنَّ الخوف سيتملك قلوبهم .. لأنَّ تلك المعاتبة كانت في أمرٍ هو في الحقيقة لا يساوي شيئاً بجانب ما يصنعه هؤلاء من كفرٍ وعناد ومؤامرات ...

وعندما يسمعون ثانياً هذا النداء للنبي ـ ﷺ ـ يأمره فيه ربه ـ تبارك وتعالى ـ بالوقوف لهم تزداد حسرتهم ، وينقلبوا خائبين خاسرين ..

أمَّا عن الأمر في هذا النداء بمجاهدة الكفار والمنافقين فقد ذكر العلماء " أنَّ تلك المجاهدة في حق الكفار تكون بالقوة إذا ناصبوا العداء للإسلام والمسلمين ، ولم يستجيبوا لأي نصح ولم يقبلوا الجزية فعندئذٍ يؤذن للمسلمين بالجهاد والغلظة عليهم ..

أمَّا مجاهدة المنافقين فتكون بإقامة الحجة والتعريض لهم بنفاقهم .. وهذا يسمى جهاداً على سبيل المجاز، كما في قوله ــ ﷺ ــ للذي سأله الجهاد فقال : ألك أبوان . قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد [1] " [2]

والأقرب في تأويل عطف المنافقين على الكفار أن يكون المراد منه " إلقاء الرعب في قلوب المنافقين ليشعروا بأن النبيَّ ــ ﷺ ــ والمؤمنين بالمرصاد لهم ، فلو بدت من أحدهم بادرة يعلم منها نفاقه عومل معاملة الكافر في الجهاد بالقتل والأسر فيحذروه ويكفوا عن الكيد للمسلمين خشية الافتضاح فتكون هذه الآية من قبيل قوله ــ تعالى ــ ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ..﴾ الآية[3]. [4]

وإذا كانت الآية الكريمة أعني قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[5] قد جاءت بلفظها مرتين مرَّة في سورة التوبة ومرَّة في هذه السورة الكريمة فهذا يدلُّ على تأكيد الأمر بمجاهدة هاتين الفئتين من الكفار والمنافقين وعدم القعود عن جهادهم ، وذلك لعظم خطرهم وإفسادهم ، وتربصهم الدائم بالإسلام بغية هدمه والقضاء عليه ..

---

(١) [سنن أبي داود ٢ ــ ٢١ كتاب الجهاد ، باب في الرجل يغزو وأبواه كارهان رقم : ٢٥٢٩ ، قال الشيخ الألباني : صحيح .(ط / دار الفكر تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد].

(٢) [ينظر التحرير والتنوير ١٣ ــ ٣٧٢].

(٣) [سورة الأحزاب آية رقم : ٦٠].

(٤) [ينظر التحرير والتنوير ١٣ ــ ٣٧٢].

(٥) [سورة التحريم آية رقم : ٩].

كما أنَّ في مجاهدتهم أداءً للأمانة في وعظهم وإرشادهم قطعاً لأعذارهم.

ومن ثمَّ فالأمر بمجاهدة هؤلاء سواء بالقول أم بالفعل لا يتوقف فقط عند صاحب الرسالة ﷺ ، وإنَّما الأمر ممتد إلى المؤمنين كما تؤكده آيات أخرى من مثل قوله ـ تعالى ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، وقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً .. ﴾الآية [2] .

ولذلك كثرت النداءات للمؤمنين في كتاب الله ـ تعالى ـ للدلالة على أنَّهم الأصلح لإقامة شرع الله ـ تعالى ـ في أرضه ، وعلى أهمية ما حملوه من أمر الرسالة بعد رسولهم الكريم ـ ﷺ ـ مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ...﴾الآية [3] .

وبعد ،،

فهذه دراسة تحليلية موضوعية حول النداءات الإلهية الكريم في سورة التحريم وقد طوفت ـ بقدر الطاقة ـ بالقارئ الكريم حول ما يتصل بهذا الموضوع ..

ولا شك أنَّ هناك الكثير والكثير من المعاني المختبئة في النِّداء الوارد في كتاب الله ـ تعالى ـ .

---

(١) [سورة التوبة آية رقم : ١٢٣].

(٢) [سورة التوبة آية رقم : ٣٦].

(٣) [سورة آل عمران آية رقم : ١١٠].

وحسبي في هذا الموضوع أنـــي أردت تقريـــب الـــصورة التفـــسيرية والبلاغية لأمر النداء من خلال سورة التحريم .

فإنْ أحسنت فتلك مِنَّةٌ من ربٍّ العالمين ــ سبحانه تعالى ــ وإن كان ما لا أرجو فحسبي أنِّي اجتهدت ،،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أهم المراجع

أولاً : كتب التفسير وعلوم القرآن .

ـ أحكام القرآن للجصاص ط / دار الكتب العلمية ـ بيروت .

ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبي السعود . ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الرابعة ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م .

ـ البحر المحيط لأبي حيان . ط دار الكتب العلمية / بيروت – الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

ـ التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ، ط / دار سحنون للنشر والتوزيع (تونس) .

ـ تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)– ط – الحلبي .

ـ تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر الشيخ / محمود شلتوت / ط / دار الشروق ٢٣ ط ١٢ ٢٠٠٤ م – ١٤٢٤ هـ .

ـ التفسير الحديث للأستاذ / محمد عزة دروزة ، ط / دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨١ هـ.

ـ جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري ، ط دار الحديث ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م ، والنسخة التي حققها الشيخ محمود شاكر ، ط / دار المعارف بمصر .

ـ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) طبعة خاصة بترخيص من دار الشعب ، دار الريان للتراث .

ـ حاشية الصاوي (أحمد بن محمد الخلوتي ، الشهير بالصاوي) على الجلالين ط / الحلبي .

ـ حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي ط / المكتبة الإسلامية بديار بكر – بتركيا .

ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للحافظ السيوطي ، ط دار الفكر- بيروت-الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للإمام الألوسي ، ط - دار الفكر - بيروت ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

ـ في ظلال القرآن للأستاذ / سيد قطب ، ط دار الشروق - السابعة والعشرون ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ، ط - دار الفكر .، ط / مكتبة العبيكان / الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

ـ مفاتيح الغيب ، للإمام الرازي ، ط - دار الغد - الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي ، ط دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م .

ـ الإتقان في علوم القرآن للحافظ السيوطي ، مكتبة دار التراث - القاهرة .

ـ البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي ، مكتبة التراث ، بدون تاريخ .

ـ حجة القراءات لـ/ عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة " أبو زرعة " - ط - مؤسسة الرسالة - بيروت / الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م .

ـ فتح الخبير في أدوات التفسير للأستاذ الدكتور/ سيد مرسي إبراهيم - ط / أولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م].

ثانياً كتب الحديث الشريف وعلومه :

ـ دلائل النبوة ، للبيهقي ، ط دار الريان للتراث - الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م .

ـ سنن الترمذي ، الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، ط بيروت .

ـ سنن أبي داود ، ط / دار الفكر تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد مع الكتاب : تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

ـ صحيح البخاري ، ط دار ابن كثير – بيروت – الثالثة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

ـ صحيح مسلم ، دار الغد ـ الأولى ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م .

ـ غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم لـ / محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي ط : مكتبة السنة – القاهرة – ١٤١٥ – ١٩٩٥ الطبعة: الأولى تحقيق: الدكتورة : زبيدة محمد سعيد عبد العزيز .

ـ مستدرك الحاكم . دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

ثالثاً : كتب التراجم :

ـ الأعلام لـ/ خير الدين الزركلي . طـ – دار العلم للملايين – بيروت – الثامنة ١٩٨٩ م .

ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، لـ / أبي الحجاج المزي . ط – مؤسسة الرسالة – بيروت – الأولى ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م . بتحقيق / بشار عواد معروف .

ـ تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني ط – دار الفكر – بيروت ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

ـ الجرح والتعديل لـ / عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي / حيدر آباد / الهند – الأولى ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٢ م – دار الكتب العلمية – بيروت .

ـ المعين في طبقات المحدثين لـ / محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي. دار النشر / دار الفرقان - عمان - الأردن - ١٤٠٤ الطبعة : الأولى ت : د همام عبد الرحيم سعيد .

رابعاً : كتب اللغة .

ـ الأساليب الإنشائية في النحو العربي/عبد السلام هارون/ ط/دار الجيل/ بيروت ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

ـ حاشية الصبَّان على الأشموني ، ط / مكتبة الصفا / الأولى ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م .

ـ حاشية الخضري على ابن عقيل / ط الحلبي .

ـ خزانة الأدب لـ / عبد القادر عمر البغدادي / ط / دار الكتب العلمية بيروت .

ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . ط / الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

ـ القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي ، نشر مؤسسة الرسالة - الثانية ١٤٠٧ هـ .

ـ كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لـ/ عبد الرحمن بن محمد الأنباري / ط / دار الفكر .

ـ لسان العرب لابن منظور - ط - دار صادر - بيروت - الثالثة ١٤١٤هـ القاهرة .

ـ المطول للعلامة التفتازاني / ط / دار الكتب العلمية / بيروت .

ـ مغني اللبيب لـ/ ابن هشام / ط / المكتبة العصرية / بيروت ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

* * *